بسم الله الرحمن الرحيم

الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم
" الإعجاز التاريخي في سورة الروم "

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١).

من الحقائق المسلم بها في تاريخ البشر أن الصراع الذي ينشب بين الأمم والدول قدر قدَّره الله سبحانه وتعالى ليفضي في نهاية المطاف إلى صلاح البشرية ونفي الفساد عن الأرض. قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الروم آية ١-٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥١.

(٣) سورة الحج آية ٤٠.

والصراع بين الفرس والروم (البيزنطيين) صراع قديم نشأ منذ قيام دولة الفرس الساسانية سنة ٢٢٦م. وقامت الحروب الطويلة والمتفرقة بين الفرس والروم بسبب الرغبة في التوسع والسيطرة على قلب العالم ومركزه وهو الإقليم المسمى بالشرق الأدنى القديم. حيث تشكل هذه المنطقة نقطة الالتقاء بين قارات العالم القديم فضلاً عن سيطرتها على طرق التجارة العالمية(٤) . ولا يهمنا من تلك الحروب إلا الحرب الأخيرة بين الفرس والروم، التي استمرت زهاء ربع قرن من الزمان (٦٠٣ – ٦٢٨ م) (٥) أي أنها استمرت من قبل مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت بالانتصار العسكري الحاسم للروم الذي تزامن مع عقد صلح الحديبية الذي كان فتحاً مبيناً كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ (٦).

ولسنا هنا بصدد عرض كل تفاصيل تلك الحرب الأخيرة، ذلك أن تفاصيلها قد دُرست في بحوث ورسائل سابقة كثيرة(٧) . فما يهمنا هو ما يخدم موضوع البحث وهو بيان الإعجاز في سورة الروم وصدى تلك الحرب وأثرها العميق على المسلمين في تلك الفترة حتى خلدها القرآن الكريم .

تعتبر هذه الحرب الأخيرة بين الفرس والروم أطول وأقسى وأشرس الحروب التي اندلعت بين الجانبين. وقد لعب العامل الديني دوراً مهماً في تحويل مجرى هذه

---

(٤) حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٧؛ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١١٤-١١٨.

(5) The Cambridge Medievel History vol. IV. The Byzantine Empire part I Byzantium and its Neighbours p.604.

(٦) سورة الفتح آية ١.

(٧) انظر على سبيل المثال الدراسة القيمة للدكتورة ليلى عبد الجواد إسماعيل : الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٢٠٦ – ٢٨٢.

الحرب التي دارت بين أقوى دولتين في العالم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم. ولعل من حكمة الله سبحانه وتعالى في قيام هذه الحرب واشتداد أوارها إبان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته في مكة وهجرته إلى المدينة وجهاده للمشركين هي إشغال القوتين الكبيرتين ببعضهما البعض عن التفكير في ما كان يجري في جزيرة العرب من اختيار الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم وإرساله للناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور، حيث تمكن النبي صلى الله عليه وسلم خلال تلك الحرب من نشر رسالته والتمكين لأمة الإسلام في المدينة وما جاورها وهي الأمة التي أطاحت في نهاية المطاف بدولتي الفرس والروم. وبعبارة أوضح يمكن القول : إن الحرب الفارسية الرومية التي استمرت من قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى صلح الحديبية كانت تقدمة من الله تعالى لرسوله حيث شغلت الدولتان عما كان يجري في داخل جزيرة العرب، فإذا افترضنا جدلاً أن تلك الحرب لم تقع، فلربما تمكنت قريش إبان الصراع الدامي مع المسلمين من استغلال علاقاتها التجارية مع إحدى الدولتين وتأليبها ضد المسلمين. إما مع الفرس في اليمن، أو مع الروم في الشام لا سيما أن مصالحها كانت مرتبطة مع الروم في الشام إلى حد بعيد، ويمكنها استثارة الروم ضد المسلمين، خصوصاً وأن عقيدة المسلمين تنص على بشرية المسيح وعبوديته لله تعالى، وتكفير من يقول بألوهيته. والمعروف أن عقيدة آريوس تقول بأن المسيح مخلوق بشر وليس(٨) الاهاً. والمعروف لدارسي تاريخ الروم، أن هذه العقيدة تعرضت لحرب شرسة منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م على أيدي أباطرة الروم حتى قضوا على هذه العقيدة في معظم بلاد دولة الروم. ويمكن لقريش أن تكسب دولة الروم إلى جانبها – لو لم تنشغل بالحرب مع الفرس – ومحاربة المسلمين الذين

---

(٨) من عقيدة أريوس انظر : حسنين ربيع : المرجع السابق، ص ٢٨.

يرفضون ألوهية المسيح عليه السلام كما يرفضون دعوى بنوته لله جل وعلا. وهكذا يبدو لنا أن الله تعالى هيأ الأسباب لنصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فأشغل الفرس والروم ببعضهم البعض ريثما يتمكن النبي صلى الله عليه وسلم من غرس عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى في نفوس أصحابه الكرام الذين قام على أكتافهم كيان الدولة الإسلامية، التي استطاعت بعد نهاية الحرب الفارسية الرومية مقارعة القوتين في وقت واحد وسحقت جيوشهما في ميادين القتال، وفتحت بلادهما، بل وأزالت دولة الفرس من الوجود وانتزعت من دولة الروم أبهى وأغنى أقاليهما مثل بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا .

وقد بدأت تلك الحرب سنة ٦٠٣ م (قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بسبع سنين) عندما استغل ملك الفرس كسرى أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨م) مقتل صديقه وحميه الامبراطور البيزنطي موريس Mourice (٥٨٢ – ٦٠٢م) على يد فوقاس Phocas(٦٠٢ – ٦١٠م) الذي أصبح أمبراطوراً على دولة الروم، فاتخذ من ذلك ذريعة لمهاجمة دولة الروم. وخلال خمس سنوات، من سنة ٦٠٣ – ٦٠٨م تمكنت الجيوش الفارسية من اجتياح أرمينية وما بين النهرين، وآسيا الصغرى حتى وصلت إلى الضفة الشرقية لمضيق البسفور قبالة القسطنطينية ، وقد اتصف ذلك الاجتياح بالتخريب والتدمير والنهب والسلب وعادت الجيوش الفارسية بغنائم كثيرة الأمر الذي عاد بأفدح الأضرار على الدولة البيزنطية(٩) .

---

(9) Ostrogorsky. G: History of the Byzantine State. Trans. Joan Husscy. (Oxford 1968). P.85;

ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٤٤ – ٤٨ ؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية الدنيوي والديني الجزء الثاني، المجلد الرابع في تاريخ سورية في القرن الثاني وما يليه إلى فتح الخلفاء الراشدين لها في القرن السابع، بيروت ١٨٩٩م، ص ٥٤١ – ٥٤٤ .

ولمواجهة الانهيار الشامل الذي كانت تواجهه الامبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) شارك حاكم ولاية إفريقية المسمى هرقل Heraclius الكبير في تدبير مؤامرة ضد فوقاس، ونجحت المؤامرة وتمكن هرقل بن هرقل الكبير من الوصول إلى عرش الدولة البيزنطية في القسطنطينية في شهر اكتوبر سنة ٦١٠م⁽¹⁰⁾ .

ويعتبر بعض أساتذة التاريخ البيزنطي هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) امبراطوراً ذا موهبة عالية وأنه كان مفعماً بالحيوية والنشاط، وأنَّ توليه عرش الامبراطورية كان نقطة تحول في تاريخ الدولة البيزنطية، ووصفوه بأنه أعظم ألأباطرة في التاريخ البيزنطي، وأنه الذي أوجد بيزنطة العصور الوسطى، وأنه جعل من روما إبان مجدها مثالاً وقدوة له، مع اتخاذه الثقافة اليونانية والنصرانية ديناً وملة⁽¹¹⁾ .

والمتأمل في التاريخ الذي تولي فيه هرقل عرش الامبراطورية البيزنطية (دولة الروم) يلحظ أن ذلك يوافق السنة التي بدأ فيها نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه صدر سورة إقرأ في غار حراء في رمضان الموافق لشهر اغسطس ٦١٠م⁽¹²⁾ . فإذا كان تولي الأمبراطور هرقل عرش الأمبراطورية يعتبر في نظر مؤرخي التاريخ البيزنطي نقطة تحول في هذا التاريخ، لا سيما في مجرى سير الحرب الناشبة مع الفرس، فإن بدء نزول الوحي في السنة نفسها على النبي محمد صلى الله عليه وسلم يعتبر إيذاناً بتغيير مجرى التاريخ الإنساني بأكمله وتحويله من طريق الضلال والظلام إلى طريق الهدى والنور، وتحرير جنس

---

(١٠) حسنين ربيع : المرجع السابق، ص ٦٠.

(11) Ostrogorosky: op. cit. p.92 ; Vasiliev. A.A: History of Byzantine Empire, 324-1453. Vol. I (Madison,1978) p.194.

(١٢) المباركفوري : الرحيق المختوم، ص ٧٥.

الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتخليص البشرية من جور الأديان إلى عدل الإسلام .

والحقيقة الصادقة التي يجب أن يُصرح بها المؤرخ المنصف ويأخذها بعين الاعتبار : أن تاريخ تولي هرقل عرش الأمبراطورية لا يشكل أهمية كبرى في مجرى التاريخ الإنساني، وإنما الأهمية الكبرى التي تزامنت مع هذا التاريخ هي بدء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم. ولعل أبلغ وصف لهذا الأمر ما سطره أحد الباحثين المحدثين حيث وصفه بأنه (ضخم جداً ، ضخم إلى غير حد، مهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة ستظل خارج تصورنا، إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعاً .. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تُعد – بغير مبالغة – هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل. ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة ؟ حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم – في عليائه – فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يُكاد يُرى، اسمه الأرض، وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده الله سبحانه بهذه الخليقة. وهذه حقيقة كبيرة، كبيرة إلى غير حد. تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان – قدر طاقته – حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية. ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية. ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنسان، ويتذوق حلاوة هذا الشعور، ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال .. وهو يتصور كلمات الله تتجاوب بها جنبات الوجود كله، منزلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة. وما دلالة هذا الحادث؟ دلالته – في جانب الله سبحانه – أنه ذو الفضل الواسع والرحمة السابغة، الكريم

الودود المنان، يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة، ودلالته – في جانب الإنسان – أن الله قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها، ولا يمكن أن يشكرها، وأنّ هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعاً ساجداً .. هذه .. أن يذكره الله ويلتفت إليه ويصله به ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته) (١٣) .

ويعلق الباحث نفسه على وصفه لبدء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بالقول : (لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط، وكما لم يتحول من بعد أيضاً. وكان هذا الحادث هو مفرق الطريق. وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ولا تطمسها الحوادث وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة، ولم يجئ بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعاً مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية. ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض، وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾(١٤) .... إنه الحادث الفذ في هذه اللحظة الفريدة. الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد، والذي كان فرقاناً في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل. والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به، وسجله الضمير الإنساني. وبقي أن يلتفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها، وأن يذكر دائماً أنه ميلاد جديد للإنسانية لم تشهده إلا مرة واحدة في الزمان) (١٥) .

---

(١٣) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٩٣٦ – ٣٩٣٧.

(١٤) سورة الأنفال : آية ٤٢.

(١٥) سيد قطب، المرجع نفسه، ج٦ ص ٣٩٣٨.

والمؤرخ الحق هو الذي ينظر للحوادث الكبرى نظرة شمولية من جميع زواياها . ومن المجازفة التي يرتكبها المؤرخ أن ينظر للحرب الأخيرة بين الفرس والروم بعين واحدة ويتتبع سيرها وحوادثها دون النظر والمقارنة بما كان يجري في جزيرة العرب من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ومجادلته قومه وصبره على أذاهم وهجرته وجهاده حتى نصره الله سبحانه وتعالى على المشركين، وقامت للإسلام دولة فتية في جزيرة العرب لأن مستقبل البشرية بأكمله كان يُرسم بحق على أرض الواقع في جزيرة العرب وليس في ميادين المعارك الكبيرة التي دارت رحاها بين الفرس والروم .

ومهما يكن من أمر فقد أدرك الامبراطور هرقل مدى ما حل بالأمبراطورية البيزنطية من كوارث على يد الفرس والصقالبة والآفار، وما وصلت إليه جيوشها من ضعف وتدهور، لذلك حاول شراء السلام مع الفرس بالمال، فأرسل إلى كسرى أبرويز هدايا قيمة، وعرض عليه دفع إتاوة سنوية مقابل السلام، لكن كسرى عرف مدى ما أصاب الروم من ضعف فرفض الصلح وأضفى على حربه صبغة دينية حين طالب النصارى بعدم عبادة المصلوب والتوجه لعبادة الشمس، وأخذ كسرى الهدايا وأمر بقتل رسل هرقل(١٦) .

---

(16) Theophanis the Confessor: Chronographia, Exrecensione Ioannis Classeni. Vol. I, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Ed. Weber (Bonnae 1839)p.464.

وانظر أيضا: المنبجي : لاغا بيوس بن قسطنطين المنبجي (ت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوج بأنواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٧، ص ٣٣١ ؛ محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨١م، ص ٧١ – ٧٢ .

وبادر الفرس بغزو أراضي دولة الروم في سنة ٦١١م بقيادة شهر باراز Sahrbaraz الذي اندفع بجيشه نحو شمال الشام فاستولى على الرها، المدينة المقدسة عند النصارى، ثم استولى على انطاكية، ذات الموقع العسكري المهم، بسبب إشرافها على المداخل الجنوبية للدروب الشامية التي تربط بلاد الشام بآسيا الصغرى، فضلاً عن أهميتها الدينية بوصفها من المدن المقدسة الرئيسة في عالم النصرانية، وقبض شهر باراز على الكثير من السكان وأرسلهم أسرى إلى فارس، كما قتل بطريرك المدينة، ثم استولى على حمص وأفامية. وسيطر بذلك على شمال الشام(١٧) .

وعمد كسرى إلى تشتيت انتباه الروم عن عمليات الجيش الفارسي في بلاد الشام فأرسل في الوقت نفسه جيشاً آخر بقيادة شاهين Sahin فاتجه نحو كبادوقيا Cappadocia في شرق آسيا الصغرى، واقتحم حاضرتها مدينة قيصرية Caesarea وقتل الكثير من سكانها وأسر الباقين(١٨) .

وحاول هرقل كسر حدة الهجوم الفارسي المزدوج فخرج بجيشه من القسطنطينية، وقصد قيصرية لنجدة القائد البيزنطي بريسكوس Priascus الذي كان يكافح الفرس خارج قيصرية، ونجح بريسكوس أخيراً – بعد أن تلقى النجدات من هرقل – في حصار الجيش الفارسي داخل قيصرية الذي أصبح يعاني الأمرين من جراء نقص المؤن والطعام، ولكن الفرس خرجوا مستميتين من قيصرية وباغتوا جيش الروم (الجيش البيزنطي) على حين غرة وألحقوا به الهزيمة وتخلصوا من

---

(١٧) المنبجي : العنوان المكلل ص ٣٣١؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع ص ٥٤٦؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(18) Sebeos, Leveque: Histoire d'Heraclius. Traduite de l'armenien et annotee par Fredenic Macler (paris 1904) p. 63;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٠٩.

الحصار، غير أن الروم نجحوا بعد جهود مضنية في استرداد قيصرية سنة ٦١٢م(١٩) . وهو العام الذي يوافق جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة بعد أن نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢٠) . لكن سيطرة الفرس على أنطاكية مكّن الفرس من فصل امبراطورية الروم براً عن ممتلكاتها في فلسطين ومصر وشمال أفريقيا، ولم يعد بوسع الروم الاتصال بتلك الممتلكات إلا عن طريق البحر.

واصل هرقل جهوده المضنية لصد الخطر الفارسي واسترداد ما فقده من بلاد الشام، فاختار قائداً جديداً يدعى فيليبكوس Philippicus وقرر سنة ٦١٣م إرساله لغزو الأراضي الفارسية مباشرة كي يُجبر الفرس على الإنسحاب من بلاد الشام. وقام الفرس في الوقت نفسه بقيادة شاهين بغزو بلاد الروم عن طريق إقليم الجزيرة الفراتية، فاستولوا على مدينتي أرزن الروم وملطية في أعالي الفرات، ورابط الجيش الفارسي بقيادة شاهين وشهرباراز في جنوب آسيا الصغرى(٢١). ولم تغير غزوة الفرس هذه خطط هرقل المتمثلة في غزو أراضي الفرس لاجبارهم على التخلي عن مكاسبهم في بلاد الشام، فقد سار قائد الروم فيليبكوس بجيشه، وفقاً لأوامر هرقل، واجتاز إقليم كبادوقيا واندفع إلى أرمينية ثم عبر جبل أرارات في أرمينية قاصداً بلاد الفرس نفسها، فأصدر كسرى أوامره إلى شاهين وشهر باراز بمنع الروم من التقدم داخل الأراضي الفارسية، والقضاء على جيش فيليبكوس قبل تحقيق هدفه، فسار شاهين وشهرباراز مسرعين بقواتهما لصد الروم، وسلكا طرقاً وعرة بغية تحقيق هدفهما، ففقدا – بسبب ذلك – كثيراً من الرجال والدواب. ولما شعر

---

(19) Sebeos: op. cit. pp. 63-65 ؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٠٩ – ٢١٠

(٢٠) سورة الحجر : آية ٩٤

(21) Sebeos, op. cit. pp. 66-67.

فيليبكوس أنه حقق هدفه بانسحاب قائدي الفرس عاد مسرعاً إلى الأراضي البيزنطية. وتقدم هرقل بنفسه لاسترداد انطاكية من الحامية الفارسية المرابطة فيها. غير أن الجيش الفارسي الرئيس بقيادة شاهين وشهر باراز عاد مسرعاً إلى أنطاكية، واشتبك مع قوات هرقل، فدارت معارك دامية بين الجانبين خارج أسوار أنطاكية، وتدفقت دماء المحاربين بغزارة، ونجح الفرس أخيراً في إنزال الهزيمة بالروم، وطردوهم من أنطاكية، وأجبروهم على الإنسحاب إلى قيليقية فتعقبهم الفرس وهزموهم مرة أخرى ، واحتلوا قيليقية ، فاضطر هرقل إلى الانسحاب إلى القسطنطينية(٢٢) .

وكان لهزيمة الروم وسقوط إقليم قيليقية في أيدي الفرس أبعد الأثر في تقرير سير مجرى الحرب بين الفرس والروم وتقرير مصير بلاد الشام حيث أصبح في مقدور الفرس إبقاء حاميات صغيرة في دروب قيليقية الضيقة لمنع جيوش الروم من

---

(22) Ibid. p. 67.

تعتبر بلاد قيليقية ذات أهمية استراتيجية بالغة . وهي تمتد على طول ساحل البحر جنوب جبال طوروس، وتشتمل على خليج الأسكندرونة ومدن هامة مثل طرسوس، وأدنة والمصِّيصة وعين زربة وغيرها، وتكثر بها الجبال الوعرة، وغالباً ما تنتهي تلك الجبال بألسنة صخرية داخل البحر لتشكل مرافئ صغيرة محمية – حيث اتخذ منها القراصنة في العصور القديمة ملجئاً لهم – وكان يوجد ببلاد قيليقية الكثير من الغابات التي تمد مصر والشام بالاخشاب، أما الجزء الشرقي من قيليقية فهو مرصع بجروف صخرية عازلة شديدة الانحدار، ومثالية للدفاع العسكري، وقد تكلل ذلك ببقايا قلاع قديمة تتحكم في معظم الممرات التي تصل قيليقية ببلاد الشام، ويوجد بالبلاد سهل منخفض شديد الخصوبة تجري خلاله عدد من الأنهار . ومن وجهة النظر العسكرية والسياسية فإن السيطرة على قيليقية يعتبر حيوياً لضمان أمن الطرق بين آسيا الصغرى وبلاد الشام. وقد توافر بالمداخل القيليقية ممرات ضيقة يمكن النفاذ منها بشكل مريح، وأحياناً كانت الطريق الوحيد من القسطنطينية وغرب آسيا الصغرى إلى المدن الكبرى في بلاد الشام ومصر وبلاد النهرين. انظر :
Lang, David Marshall: Armenia Cradle of Civilization, (London 1978)p.200.

التقدم عبرها إلى بلاد الشام، ومن ثمة التقدم بالجيوش الفارسية الكبيرة لانتزاع بقية بلاد الشام. وهذا ما فعله الفرس حيث تقدم القائد الفارسي شهر باراز جنوباً صوب دمشق فاستولى عليها سنة ٦١٣م وانتزع بقية موانئ الشام بسهولة، وحال بذلك دون وصول الإمدادات بحراً لإنقاذ بيت المقدس(٢٣) .

اتخذ القائد الفارسي من دمشق قاعدة للانطلاق إلى فلسطين للإستيلاء على بيت المقدس التي أصبحت معزولة من ناحية البر عن بقية أجزاء دولة الروم، وذلك بسبب الأهمية الكبرى لبيت المقدس، فهي المدينة المقدسة الأولى عند النصارى التي ارتبطت بها أصول الديانة النصرانية، ففيها كنيسة القيامة، ومهد السيد المسيح عليه السلام حيث عاش فيها وبدأ دعوته، وفيها تناول العشاء الأخير مع حوارييه قبل أن يُرفع إلى السماء. وقد ازدادت أهمية بيت المقدس عند الروم منذ اعتراف الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧م) الكبير بالنصرانية، والكشف المزعوم عن خشبة الصليب(٢٤) بواسطة هيلانة والدة قسطنطين، والتي يعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام قد صُلب عليها. وقد اعتنى الأباطرة منذ ذلك الحين بمدينة بيت المقدس وبالأعياد التي كانت تقام فيها، فأرسلوا لها الأموال والذخائر، وقام البطاركة بالعناية بالكنائس والمزارات المسيحية، وزينوها بالمعادن النفيسة والتحف الفاخرة، حتى تكدست بها ثروات طائلة عبر القرون، وأصبح الإستيلاء عليها هدفاً غالياً في نظر

---

(23) Sebeos : op. cit. p. 686; Ostrogorsky: op. cit. p.95; Vaciliev: op. cit. Vol. I. p. 195;

ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص٢١٢؛ يوسف الدبس: تاريخ سورية،ج ٢، المجلد الرابع، ص٥٤٦

(٢٤) عن خشبة الصليب انظر: اسحاق عبيد : قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع. المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٣(١٩٧٠)، ص ٥-٢١.

الفرس للحصول على ما فيها من غنائم قيمة، فضلاً عما يعنيه سقوطها في أيديهم من سقوط هيبة دولة الروم وزوال نفوذها عن سائر بلدان الشرق(٢٥) .

وفي ربيع عام ٦١٤م اندفع الجيش الفارسي بقيادة شهر باراز نحو فلسطين، فاجتاح الجليل وضفتي نهر الأردن إلى بحيرة لوط فدمروا وأحرقوا كل ما واجهوه من عمران، وفر السكان هاربين، ولم يبق إلا بعض الرهبان والنُسَّاك العاجزين عن الهرب فقتلهم الفرس عن آخرهم، وتقدم شهر باراز صوب القدس للاستيلاء عليها(٢٦) . ويذهب البعض إلى أن شهر باراز مال إلى الاستيلاء على بيت المقدس صلحاً، بعد أن رأى قادته موقع المدينة والأودية والمنخفضات المحيطة بها فضلاً عن تحصيناتها القوية. وفي الوقت نفسه أدرك بطريرك بيت المقدس زكريا أنه ليس في مقدور الأمبراطور هرقل إرسال نجدة كبيرة لانقاذ بيت المقدس بعد أن قطع الفرس طرق الاتصال البرية مع القسطنطينية، كما سيطروا على معظم موانئ بلاد الشام، فأراد البطريرك أن يجنب بيت المقدس المصير الرهيب الذي ينتظرها إذا قاومت الفرس، فأشار بعقد الصلح مع الفرس، غير أن آراء معظم أهل المدينة لا سيما الشباب أصرت على مقاومة الغزاة، فأذعن البطريرك لتلك الآراء وتقرر الاستعانة ببقايا جيوش الروم للمساهمة في الدفاع عن المدينة المقدسة ضد هجوم الفرس(٢٧) .

---

(25) Stratos, A.N: Byzantium in the Seventh Century, vol. I, 602-634, Trans, By Marco Ogilieve – Grant (Amsterdam 1968). P. 107.

(٢٦) يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٦.

(27) Expugnationis Hierosolymae A.D. 614, Recensiones Arabicae (ed.) Gerardo Garitte, in Corpus Scriptorom Christianorum Orientalum. Scriptores Arabici, T. 26, Louvain (Belgique 1973) pp.68,116-117.

ويذكر المؤرخ الأرمني سيبيوس أن شهرباراز أقام ببلدة قيسارية على ساحل فلسطين(٢٨) . الأمر الذي يدل على حنكة هذا القائد وخبرته العسكرية، فلم يشأ الاندفاع مباشرة صوب بيت المقدس، وخشي - فيما يبدو - أن يتمكن أسطول القسطنطينية من إنزال نجدات عسكرية على ساحل فلسطين، مما يشد من أزر سكان بيت المقدس، ويضع أمام الجيش الفارسي صعوبات جمة، لذلك نصب معسكره في قيسارية، ومنها أرسل إلى أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الاستسلام مقابل حقن دمائهم وأموالهم، ويبدو أن وجهاء المدينة والبطريرك زكريا أدركوا أنه لا أمل لهم في النجاة بعد أن عرفوا باحتشاد الجيش الفارسي في قيسارية على الساحل، الأمر الذي يحرمهم من أي نجدة عن طريق البحر، لذلك قرروا الموافقة على التسليم، وأرسلوا الهدايا القيمة لشهر باراز، وسمحوا له بإرسال بعض الحرس لحراسة أبراج المدينة. غير أن شباب المدينة وثبوا على الحرس فقتلوهم، ثم أغلقوا الأبواب، وأوقعوا باليهود الذين مالوا إلى الفرس، مما حفز بقية اليهود للوقوف بجانب الفرس بكل قوة(٢٩) .

وعقب ذلك تقدم شهرباراز بجيشه صوب مدينة بيت المقدس وحاصرها ونصب معدات الحصار المكونة من المنجنيقات والأبراج والكباش. وقد بدأ حصار المدينة في ١٥ أبريل ٦١٤م(٣٠) ، وظل الفرس زهاء ثلاثة أسابيع وهم يقذفون

---

(28) Sebeos: op. cit. p. 68.
(29) Ibid. p. 68.
(٣٠) تختلف المصادر في تحديد العام الذي اقتحم فيه الفرس بيت المقدس فبعضها أكد أنه عام ٦١٤م في حين ذكر البعض الآخر أنه سنة ٦١٥م. والراجح ما أثبتناه في المتن حيث قالت به المصادر المعاصرة للحوادث وبه أخذ الأستاذ فاسلييف . انظر : Vasiliev: op. cit. p. 195 ، وانظر عن الخلاف بين المصادر : ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢١٣ - ٢١٤. ==

المدينة بأحجار المنجنيق ودافع الأهالي عن مدينتهم ببسالة رائعة واستطاعوا دفع المهاجمين مراراً عن أسوار بيت المقدس بما ألقوه عليهم من الأحجار والسهام. غير أن الأبراج والكباش الفارسية اخترقت أخيراً أسوار المدينة. كما نجحت فرق أخرى من النقابين في إحداث ثقوب أسفل الأسوار، ووضعوا فيها الحطب وأضرموا فيها النيران فسقطت أجزاء من الأسوار، فلاذ الحراس بالفرار إلى الكنائس والجبال القريبة للنجاة بأنفسهم(٣١) .

وفي ٥ مايو سنة ٦١٤م ، وبفضل مساعدة اليهود داخل بيت المقدس، دخل الفرس إلى المدينة(٣٢) . وينقل فاسيلييف عن أحد المصادر وصفاً حياً لدخولهم حيث قال : (دخل الأعداء الأشرار إلى المدينة أمواجاً وهم أشبه ما يكونون بالحيوانات الحانقة وجموع التنين الهائجة) (٣٣) . وعلى هذه الصورة اقتحم الفرس بيت المقدس وشرعوا في قتل السكان بدون تمييز، فوضعوا السيوف في رقاب الشيوخ والنساء والأطفال وقتلوهم بقسوة بالغة وبدون شفقة أو رحمة مدفوعين في ذلك بحقدهم المجوسي الدفين. واقتحموا ديراً للراهبات يسمى دير العذارى في شرق بيت المقدس

= وسواء كان التاريخ ٦١٤م أو ٦١٥م ، فإن الفترة التي تفصل بين هذه الهزيمة الساحقة التي حلت بالروم وبين أول نصر يحرزه الروم على الفرس وهو سنة ٦٢٣م يصبح تسع سنوات باعتبار الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤م وثمان سنوات باعتبار ذلك كان سنة ٦١٥م، وكل ذلك يعني بضع سنين كما نص عليه القرآن الكريم في سورة الروم حيث فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم البضع بأنه دون العشر – كما سيأتي إيضاحه بعد قليل.

(31) Sebeos: op. cit. p. 68; Expugnationis : op. cit. p.69; Vasiliev: op.cit. vol.I, p.195; Ostrogorsky: op.cit. p. 95;
يوسف الدبس: تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٧؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢١٤ – ٢١٥.

(32) Runciman, Steven: A History of the Crusades, 3 vols. (Cambridge 1968) vol. I, p.10.

(33) Vasiliev: op. cit., vol. I. p. 195.

وكان به أربعمائة راهبة فانتهكوا أعراضهن واقتسموهن بينهم (٣٤). وأنزل الفرس بالسكان النصارى من أعمال القتل ما لم يضارعهم فيه إلا الصليبيون بعد نحو خمسة قرون حين اقتحموا بيت المقدس على المسلمين سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م وارتكبوا تلك المذبحة المشهورة في تاريخ الحروب الصليبية .

وناصر يهود بيت المقدس الفرس وقاموا بدور رئيس في المذبحة التي حلّت بالنصارى. وطبقاً لبعض المصادر فإن ما بين ٥٧ - ٩٠ ألفاً من النصارى قد قُتلوا، وأعداداً أخرى كبيرة تصل إلى خمسة وثلاثين ألفاً جرى استرقاقهم، وأرسل كثير من الأسرى إلا بلاد فارس وضمنهم البطريرك زكريا(٣٥) . ولم تقتصر أعمال

---

(34) Expugatoionis: op. cit. pp. 120-121, 125, 126; Runciman: op. cit. vol. I, p. 10; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 195 ;
يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٧؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٢١٥.

(35) Sebeos: op. cit. p. 69; Theophanis: op. cit. p. 463; Vasiliev: op. cit. Vol. I, p. 195; Ostrogorsky: op. cit. p. 85; Runciman: op. cit. vol. I, p.10.
يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٧.

ويجب أن نشير هنا إلى موقف اليهود من الغزو الفارسي حيث استغلوا ذلك الغزو منذ بدايته زمن الامبراطور فوكاس فثاروا على دولة الروم ، وبدأت ثورتهم في أنطاكية حيث قبضوا على بطريرك أنطاكية انسطاس (انستاسيوس Anastasus) وقتلوه وسحبوا جثته في شوارع أنطاكية. وهاجموا منازل وجهاء النصارى فأحرقوها . فأمر فوقاس بتنصير اليهود بالقوة وانتشرت ثوراتهم في بيت المقدس والأسكندرية والقسطنطينية . ولما اجتاح الفرس بلاد الشام وبيت المقدس سنة ٦١٤م انتهز اليهود تلك الفرصة فأظهروا الفرح والسرور لما حل بخصومهم النصارى، وانضموا إلى الفرس وقدموا لهم المساعدة في اجتياح مدن فلسطين ، كما شاركوا الفرس في إحراق وتدمير الكنائس النصرانية. انظر :

Thpophanis: op. cit. p. 457; Michel Le Syrien: Chronique universelle, Vol. II, pt. I, ed. And trans. By: J.B. Chabot. Paris : (Ernest Leroux, 1901) Vol. II, p. 379.

يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٤، ٥٤٧.

الفرس على القتل والهتك والأسر، بل اقتحموا الأماكن المقدسة عند النصارى وسلبوا كنيسة القبر المقدس، المسماة كنيسة القيامة، التي شيدت إبان عهد قسطنطين الكبير ووالدته هيلانة، ثم أشعلوا فيها النيران(٣٦) . أما صليب الصلبوت، وهو أقدس المخلفات الدينية عند النصارى، وهو عبارة عن خشبة مغلفة بالذهب الخالص، يعتقد النصارى أنها الخشبة التي صلب عليها المسيح فقد اختفى. ويذكر الطبري أنه وضع في تابوت من ذهب وطُمِرَ في بستان داخل بيت المقدس، وزُرِع فوقه مبقلة، فأجبر القائد الفارسي أسقف المدينة وبقية القسس على أن يدلوه على الموضع، فدلوه عليه فاستخرجها بيده وأرسلها إلى كسرى أبرويز(٣٧) . وواصل الفرس تخريب بقية المعابد النصرانية والكنائس فسلبوا وأحرقوا كنيسة القديس ستيفن Saint Stephen، ولم ينج من التخريب والحرق إلا كنيسة المهد في بيت لحم، احتراماً لما كان يعلو بابها من فسيفساء تصور الحكماء القادمين من الشرق في أزياء فارسية(٣٨) . وهذا أمر له دلالته العميقة . إذ يشير بوضوح إلى أن جيوش الفرس كانت على وعي تام بكل ما تفعله وأن ما أجرته من تخريب وتدمير إنما كان وفق سياسة مرسومة أملتها طبيعة تلك الحرب وما اتصفت به من مظاهر دينية واضحة .

هذا ويحاول المؤرخ اليهودي الحديث موسى جل في كتابه الواسع عن فلسطين ٦٣٤-١٠٩٩م تبرئة اليهود من الأعمال التي قاموا بها ضد النصارى. ويعتبر أن ما حصل مجرد صلات مثيرة للعاطفة من اليهود تجاه الفرس نتيجة ما نعم به اليهود قبل مئات السنين من حدب من جانب الفرس وما كان بينهما من مصالح مشتركة . انظر :

Moshe Gil: A History of Palestine, 634-1099. Translated from Hebrew By Ethel Broido (Cambridge 1997) pp. 5-6.

(36) Vasiliev: op. cit. vol. I, p. 195.

(٣٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٢ ص ١٨١، وانظر أيضاً : القرد. ج. بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص ١٠١.

(38) Runciman: op. cit. vol. I, p.10.

يتبنى الأستاذ فاسيلييف أراءً تحليلية لكاتب يدعى كونداكوف Kondakov عن النتائج التي يرى أنها أصابت بيت المقدس جراء الغزو الفارسي حيث يعتبر أن الغزو الفارسي المدمر لفلسطين ونهب بيت المقدس نقطة تحول فاصلة في تاريخ المنطقة. ولما كانت تلك الآراء تحمل بعض المجازفات الخطيرة، أهمها : إلغاء دور بيت المقدس الحضاري خلال العصور الإسلامية بأكملها، وإلغاء دور الإسلام في حركة الفتوح الإسلامية(٣٩) ، فإنه لا بد من عرض تلك الآراء ومناقشتها في ضوء الحقائق التاريخية حيث جاء في كتاب فاسيلييف ما ترجمته : (ولم يُسمع بمثل هذه الكارثة منذ الاستيلاء على بيت المقدس في عهد الامبراطور تيتوس Titus، لكن في هذا الوقت لم يعد بالإمكان معالجة الفاجعة، فلم تسترد هذه المدينة تاريخاً مشابهاً لدورها تحت حكم قسطنطين، فالمباني الفخمة داخل أسوار المدينة مثل مسجد عمر(٤٠) لم يجدد ثانية أبداً في أي حقبة من التاريخ. ومنذ الآن أخذت المدينة ومبانيها تضمحل تدريجياً وباستمرار. وحتى الحروب الصليبية أفضت إلى نهب

---

(٣٩) نقل بعض المؤرخين العرب بعضاً من تلك الآراء في مؤلفاتهم دون نقد. انظر على سبيل المثال: السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص ١٨٨ – ١٩٩؛ عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية، الاسكندرية ١٩٩٤م، ص ١٠٠ ؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٤٠) المقصود بمسجد عمر ، المكان الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحين تسلم عمر بيت المقدس زار بعض كنائس النصارى صحبة البطريرك صفرونيوسSophronius ، ولما وصلا كنيسة القيامة، حان وقت الصلاة عند المسلمين، فسأل الخليفة أين يمكن أن يفرش رداءه للصلاة، فتوسل إليه صفرونيوس أن يصلي داخل الكنيسة، غير أن عمر خرج إلى خارج باب الكنيسة وصلى أمام الباب، حتى لا يزعم المسلمون فيما بعد أن هذا المكان صلى فيه عمر فيأخذون الكنيسة؛ وهو ما حدث بالفعل حيث أصبح المكان الذي صلى فيه عمر مسجداً صغيراً للمسلمين، وهو حالياً داخل سور المسجد الأقصى . انظر :
Theophanis: op. cit. pp. 519-520; Runciman: op. cit. vol. I, p.3.

متعدد من أجل أوربا، وتسببت في اضطراب وفوضى وانحلال في بيت المقدس. وأزال الغزو الفارسي المظاهر الاصطناعية المستوردة للحضارة الإغريقية الرومانية في فلسطين. ودُمرت الزراعة ، وحُرمت المدن من سكانها، وحُطمت الكثير من الأديرة والصوامع مؤقتاً أو دائماً. وتوقف نمو التجارة تماماً. وحرَّر هذا الغزو القبائل العربية من عوائق الاتحاد والخوف التي كانت تسيطر عليها، فبدأت تقيم الوحدة التي جعلت من الممكن لها القيام بهجمات شاملة في الفترة التالية ومنذ الآن انتهى التطور الثقافي للبلاد. وبعد ذلك دخلت فلسطين فترة مضطربة يمكن أن نطلق عليها فعلياً فترة العصور الوسطى، والتي استمرت في الحقيقة حتى عصرنا الحاضر) (٤١) .

وإذا سلمنا بضخامة الكارثة التي نزلت ببيت المقدس وفلسطين تحت وطأة الغزو الفارسي وما ألحقه ذلك الغزو بهما من دمار كبير في تلك الحقبة إلا أن كونداكوف وفاسيلييف قد جازفا كثيراً عندما اعتبرا أن الدمار الذي حصل في بيت المقدس دماراً أبدياً لم تنهض منه المدينة حتى العصر الحاضر. والحقيقة أن بيت المقدس لم تنهض بعد ذلك كمدينة نصرانية تهيمن على حياتها الحضارة اليونانية الرومانية، ولكنها نهضت بعد الفتح الإسلامي وأصبحت من المدن الكبرى في عالم الإسلام، وقامت بدورها الفكري والحضاري على مدى نحو خمسة قرون، ولم تبدأ في التدهور إلا بعد الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م. وبعد أن استردها المسلمون بقيادة صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، استردت بيت المقدس عافيتها من جديد وتطورت شيئاً فشيئاً حتى غدت من كبرى المدن الإسلامية التي تعج

---

(41) Vasiliev: op. cit. vol. I, p.195.

نقلاً عن :

N.P. Kondakov: An Archeological Journey through Syria and Palestine, pp. 173 – 174.

بالمدارس والمساجد والأربطة، والعلماء وطلبة العلم. وقامت بدورها الحضاري والثقافي خير قيام. ونظرة سريعة في كتب التاريخ والتراجم وأسماء أعلام الفكر الإسلامي تُظهر لنا أسماء كثيرة للعلماء المقادسة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم. ولو تصفح القارئ - على سبيل المثال - كتاب " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" لمجير الدين العليمي الحنبلي(٤٢) ، لاتضح له خطأ الحكم الذي أصدره كوندلكوف وفاسيلييف بتوقف التطور الثقافي لفلسطين بغزو الفرس وإلى العصر الحاضر، ولاتضح له بما لا يدع مجالاً للشك أن بيت المقدس نهضت نهضة فكرية خلال العصور الإسلامية لا مثيل لها وأن ازدهارها الثقافي إبان العصر الروماني، لا يرقى إلى مستوى ازدهارها الثقافي إبان العصر الإسلامي. وأن ذلك التحول الثقافي في حياة بيت المقدس كان سيتم سواء وقع الغزو الفارسي أم لم يقع، لأن الفتح الإسلامي هو الذي حولها إلى مدينة إسلامية لها مكانتها المرموقة في ميدان الحضارة الإسلامية .

أما المجازفة الثانية التي وقع فيها كونداكوف وفاسيلييف فهي الزعم بأن الغزو الفارسي لامبراطورية الروم واحتلال الفرس لبلاد الشام حرَّر القبائل العربية من عوائق الوحدة والخوف التي كانت تسيطر عليها، فبدأت تلك القبائل تقيم الوحدة التي جعلت من الممكن لها القيام بهجمات شاملة في الفترة التالية. وفي هذا القول مغالطة كبيرة، بل هو باطل من أساسه، إذ أنه يُلغي دور الإسلام كلياً في إقامة كيان أمة جديدة وفريدة على أساس العقيدة ، ومن ثمة القيام بحركة الفتوح الإسلامية

---

(٤٢) انظر أيضاً كتاب : عبد الجليل حسن عبد المهدي: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ودورها في الحركة الفكرية، في جزئين، عمان ١٩٨١م ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، في كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة ١٩٨٧، ص ٤٨٩ - ٥٤٩.

لتحطيم العقبات والعوائق التي تحول دون وصول دعوة الإسلام إلى سائر الشعوب. وهذا الزعم يوحي وكأن قيام دولة الإسلام في جزيرة العرب وقيام حركة الفتوح كان نتيجة للغزو الفارسي لبلاد الشام، وليس نتيجة لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وصبره وهجرته وجهاده، وتربيته الفريدة لأصحابه. ولو تأمل كونداكوف، وفاسيلييف ما كان يجري في جزيرة العرب إبان الحرب الفارسية الرومية لأدركا أن قيام تلك الدولة الفتية في جزيرة العرب كان على أساس دين الإسلام، وأن انتصار تلك الدولة لم يتم إلا بعد أن تحول سير مجرى الحرب الرومية الفارسية لصالح الروم، وأن صُلح الحديبية – الذي كان فتحاً مبيناً – حدث بعد انتصار هرقل النهائي على الفرس. وأن المسلمين حين شرعوا في غزو دولة الروم، كانت تلك الدولة في ذروة انتصاراتها الحاسمة على الفرس فجيوشها جاهزة وكاملة لم تُسرح، وروحها المعنوية في القمة، وقد حصلت على خبرات ميدانية طويلة ومفيدة، وعلى غنائم ضخمة، بحيث أصبحت انتصارات الروم على الفرس كفيلة بإثارة الخوف والفزع في نفوس أي قوة أخرى تريد الهجوم على أراضيها عدا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين غرس فيهم حب الجهاد والاستشهاد، ولم يعودوا يخشون إلا الله، ولا هدف لهم إلا التقرب إلى الله بأرواحهم، وليس أمامهم إلا الفوز بإحدى الحسنيين، إما النصر أو الشهادة، إضافة إلى أن المسلمين في المدينة غزو الروم بثلاثة آلاف فقط وقاتلوهم في مؤتة سنة ٨هـ / ٦٢٩م عندما كان هرقل وقادة الروم يحتفلون في بلاد الشام بانتصارهم النهائي على الفرس. وكانت قريش لا تزال تناهض المسلمين وخلفها معظم قبائل العرب، فأين الخوف الذي يتحدث عنه كونداكوف وفاسيلييف؟ وفوق هذا فإن المسلمين شرعوا بعد ذلك في مهاجمة الدولتين الكبيرتين، فارس والروم، في وقت واحد، وعلى جبهات متعددة، وبأعداد قليلة لا تُقارن بأي حال من الأحوال مع أعداد جيوش الفرس والروم .

وإذا تأملنا هذه المجازفة الثانية الباطلة – التي قال بها كونداكوف وفاسيلييف – نجد فيها الزعم بأن قبائل العرب تحررت من الخوف وبدأت تقيم الوحدة بينها. فالقبائل العربية لم تقم دولة الإسلام، وإنما أقامها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وقفت القبائل العربية بسبب العصبية القبلية موقفاً معادياً بشراسة للإسلام، مثل قريش – قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم – التي أخذت على عاتقها محاربة دعوة الإسلام ، حفاظاً على كيانها القبلي ومصالحها الضيقة. بل حشدت خلفها الكثير من قبائل العرب لاستئصال الإسلام في غزوة الأحزاب المشهورة . وبعد أن فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة سنة ٨هـ / ٦٢٩م، وانتصر على هوازن وثقيف في السنة نفسها. أدركت قبائل العرب أن هذه قوة جديدة كاسحة لا قبل لها بمواجهتها فأرسلت وفودها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعلن إسلامها ودخولها في طاعته، دون أن يتغلغل الإسلام – كعقيدة – في نفوس كل قبائل العرب، لذلك ما أن سمعت القبائل بمرض النبي صلى الله عليه وسلم ثم موته حتى قامت بالحركة المعروفة بالردة، والتي شملت معظم قبائل العرب(٤٣) . ولم يبق على الإسلام إلا تلك النواة الصلبة المؤمنة التي صنعها الله تعالى على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار وقريش وثقيف، وبعض الثابتين على الإسلام من القبائل الأخرى، والذين كانوا في مجموعهم يشكلون أقلية أمام سائر قبائل العرب، ومع ذلك استطاعت تلك النواة الصلبة المؤمنة سحق حركة الردة بالكامل خلال فترة وجيزة وأذعنت جميع القبائل مرة أخرى لدولة الإسلام. وإذا تأملنا ما أصاب جماعة المؤمنين من خسائر أثناء صراعهم الدامي مع المشركين قبل فتح مكة ثم أثناء القضاء على حركة الردة ، نجد تلك الجماعة المؤمنة قد تكبدت من الخسائر ما يفوق

---

(٤٣) انظر تفاصيل هذا الموضوع في بحث : سعيد عبد الفتاح عاشور: أضواء جديدة على حركة الردة في صدر الإسلام، في كتاب : بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ص ٤٧ – ١١٦.

– بالنسبة لعددها – أضعاف الخسائر التي تكبدها الروم والفرس في حربهم الطويلة مقارنة بعددهم وإمكاناتهم، ومع ذلك تجاسرت جماعة المؤمنين بعد القضاء على حركة الردة على مهاجمة دولتي الفرس والروم في وقت واحد وحققت عليهما انتصارات كبيرة مع ملاحظة أن الخليفة أبا بكر الصديق (لم يشرك أحداً من المرتدين في الفتوح، بل جردهم من السلاح لأنه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة، وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ثم إنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي فلا يعطون سكان المناطق المفتوحة المثل الصالح للجندي المسلم)(٤٤) .

والحق أن أسباب قيام حركة الفتوح الإسلامية وسرعة نجاحها تختلف تماماً عما ذهب إليه كونداكوف وفاسيلييف، ومن تلك الأسباب : أن الدعوة الإسلامية قامت على أساس التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى وحده وإفراده بالعبودية دون سواه، وهذا ما يوافق الفطرة السليمة، لذلك انتشرت عقيدة الإسلام بسرعة بين شعوب البلاد المفتوحة ، فدخل الكثير منهم في الإسلام عن اقتناع كامل وإرادة حرة. كما أن مبادئ الإسلام العادلة جعلت شعوب البلاد المفتوحة تتوق إلى حكم المسلمين، لما رأوه من عدل ورحمة لم يجدوها عند حكامهم السابقين. كما أن المسلمين أنفسهم كانوا شديدي الإيمان بقضاء الله وقدره، فدخلوا سائر المعارك دون أن يخشوا الموت، بل كانت الشهادة مطلباً غالياً للكثير منهم، فطلبوا الموت فوهبت لهم الحياة. وفوق هذا وذاك وجود الصحابة الذين رباهم النبي صلى الله عليه وسلم، الذين تخلقوا بأخلاق القرآن السامية وطبقوه واقعاً عملياً في حياتهم، وضربوا أروع الأمثلة بالفداء وحب الاستشهاد، وبذلك أثَّروا في العرب الذين تابوا بعد حرب الردة فاعتنقوا

---

(٤٤) أكرم ضياء العمري : عصر الخلافة الراشدة " محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين"، المدينة المنورة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ٣٢٨.

الإسلام بصدق والتفوا حول الصحابة واتخذوهم قدوة لهم. إضافة إلى شجاعة الجندي العربي وخشونته التي نشأ وتربى عليها فزادها الإسلام رسوخاً وقوة بدعوته إلى الخشونة والزهد والتقشف. كما أن الجهاد أصبح ذروة سنام الإسلام وأفضل الأعمال الصالحة التي تقرب العبد من الله. وكذلك إيمان المسلمين العميق بأن الله تعالى سوف ينصر دين الحق على سائر الأديان، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٤٥) وإيمان المسلمين أيضاً بأن الله سوف يستخلفهم ويمكنهم في الأرض قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤٦) .

وكيفما كان الأمر، فقد بدت خسارة الروم لبلاد الشام وبيت المقدس كبيرة ومصيبتهم فادحة. وكان لذلك دوي هائل في جميع أنحاء العالم النصراني، بل وفي بلاد العرب أيضاً حيث نجد أثر تلك الهزيمة الفادحة للروم في مكة حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعاني من تكذيب قومه له واضطهادهم لأصحابه، حيث توافق تلك الحادثة السنة الخامسة من بعثته . ولا شك أن تجار قريش الذين وفدوا إلى الشام في رحلة الصيف المعروفة سنة ٦١٤م شهدوا بأم أعينهم آثار انتصار الفرس وسقوط بيت المقدس بأيديهم وما حل بالروم من خسائر فادحة، فلما عادوا بتلك الأنباء إلى مكة، اتخذ المشركون من تلك الهزيمة وسيلة دعاية للشماتة بالمسلمين حيث (كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب

---

(٤٥) سورة الصف : آية ٩ .

(٤٦) سورة النور : آية ٥٥ .

وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان) (٤٧) . ويفهم من هذا النص أن المسلمين والمشركين في مكة كانوا يسمعون بالحرب القائمة بين الفرس والروم ويتابعون سيرها، فلما احتل الفرس الشام واقتحموا بيت المقدس أيقن المشركون أن الحرب حُسمت لصالح الفرس، وقد أوضح القرآن الكريم في أوائل سورة الروم أن هزيمة الروم – التي فرح بها المشركون – ليست إلا جولة في حرب طويلة سيكون النصر في نهايتها للروم ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ

---

(٤٧) هذا النص جزء من الحديث الصحيح المشهور حول الحادثة، وقد أخرجه أبو إسحاق الفزاري حيث رواه عن سفيان الثوري عن حبيب بي أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذلك في كتاب السير ص ٣١٧ برقم ٦١١، ومن طريقه أخرجه أحمد في المسند ، ج١ ص ٢٧٦، ٣٠٤ ؛ والترمذي ، ج٥، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ في التفسير باب ومن سورة الروم برقم ١٩٣؛ والنسائي في السنن الكبرى في التفسير ج ٢١، ص ١٢؛ والطبراني في المعجم الكبير ج ١٢، ص ٢٩ برقم (١٢٣٢٧)؛ والحاكم في المستدرك ج٢، ص ٤١٠، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ وأبو نعيم في دلائل النبوة ج٢، ص ٣٥١ – ٣٥٢ برقم ٢٤٢؛ والبيهقي في دلائل النبوة ج٢، ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

ويجب لفت الانتباه هنا إلى أن المحدثين والمفسرين والمؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عن الحرب بين الفرس والروم كان تركيزهم على تفسير الآيات الواردة في صدر سورة الروم وصدى تلك الحرب على المسلمين والمشركين. أما فيما يتعلق بسير تلك الحرب وحوادثها وقادتها وتواريخها فقد بذلوا جهدهم في هذا المجال إلا أنه قد يقع منهم بعض الأخطاء في ذلك لأنه لم يكن في مقدورهم – في ذلك الحين – الاطلاع على مصادر تلك الحرب سيما المعاصرة منها مثل : جورج البسيدي والحوليات الفصيحة، وأعمال الآباء اليونانيين ويوحنا النقيوسي. لهذا يجب أن نلتمس لهم العذر في هذا الباب. ولذا لن نتحدث عن رواياتهم في سير حوادث تلك الحرب وسوف نقتصر على الحديث عن صدى وأثر الحرب على المسلمين والمشركين.

اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٨). والمعروف عند المسلمين أن سورة الروم مكية بالإجماع(٤٩) . وأن سبب نزولها هزيمة الروم في بلاد الشام وسقوط بيت المقدس بأيدي الفرس، حيث ابتهج المشركون بانتصار الفرس لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب. وساء ذلك المسلمين لأن أهل الكتاب أقرب إليهم(٥٠) . وقد روت لنا المصادر الإسلامية مدى السخرية والشماتة التي أظهرها المشركون بالمسلمين في مكة حيث قالوا لهم : (أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميّون، وقد ظهر إخواننا من فارس على الروم وهم أهل كتاب، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي أُنزِلَ على نبيكم، ولئن قاتلتمونا لنظهرن عليكم كما ظهرت فارس على الروم) (٥١) ويتضح من هذا أن العامل الديني هو الذي جعل كفار قريش يتعاطفون مع الفرس ويشمتون بالمسلمين، ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك بقوله : (إنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث وأهل أصنام، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم لأنهم وإياهم أهل

---

(٤٨) سورة الروم : الآيات ١ – ٧ .

(٤٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج ١٤، ص١.

(٥٠) الواحدي : أسباب النزول ، ص ٢٣١ – ٢٣٢؛ تحفة الأحوذي ج٩ ، ص ١٥ – ٥٣.

(٥١) الطبري : جامع البيان، ج١، ص ١١-١٥؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ١٨٤؛ أبو نعيم الأصبهاني : دلائل النبوة ج١، ص ١٢٣ – ١٢٤؛ البيهقي : دلائل النبوة، ج٢، ص ٢٣٠؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق، ج١، ص ٣٥٦؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص ١-٢؛ ابن كثير : السيرة النبوية ، ج٢، ص ٩١-٩٢؛ السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٥، ص ١٥٠-١٥٢؛ الصالحي : سبل الهدى والرشاد، ج٢، ص ٥٦٠ وما بعدها . وهذا الحديث في مجموع طرقه متواتر عن أهل التفسير والمغازي والحديث والفقه " والقصة متواترة عند الناس " كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج١، ص ٢٧٤.

نبوة وتصديق بالبعث) (٥٢) . ومن الإعجاز العجيب الذي أراده الله تعالى أن جاءت حوادث الحرب موافقة لما استفتح به كل فريق – كما سنرى – إذ أن استمرار انتصارات الفرس حتى سنة ٦١٩م صاحبها شدائد عظيمة على الأقلية المسلمة في مكة، ثم لما بدأ التحول منذ سنة ٦٢٠م وحتى نصر الروم النهائي جاء موافقاً لاستفتاح المسلمين، فما من نصر يحرزه الروم إلا ويعقبه مباشرة نصر عظيم للمسلمين، فلما حقق الروم النصر الكاسح والنهائي على الفرس أعقبه مباشرة الفتح المبين بصلح الحديبية ثم فتح مكة بعد ذلك، وعلى أية حال فإن هذا الأثر الذي أحدثه انتصار الفرس على الروم على شعور المشركين في مكة بحيث فرحوا به وشمتوا بالمسلمين يوضح لنا من الحقائق ما يلي :

أولاً : شدة عداوة المشركين للمسلمين المستضعفين ولغطهم ضد دعوة التوحيد في مكة لدرجة أنهم وجدوا في انتصار الفرس الوثنيين وسيلة للتشفي من المسلمين وفألاً بانتصار عقائد الوثنية على عقيدة التوحيد. في وقت كانت فيه مصالح قريش وتجارتها أشد ارتباطاً بالروم في بلاد الشام منها مع الفرس، وبخاصة وأن ما نزل ببلاد الشام وسكانها من قتل ودمار وخراب وتهجير يجعلهم عاجزين عن شراء ما كانت تحمله رحلة الصيف القرشية من تحف الهند واليمن والحبشة الأمر الذي يعود بأفدح الضرر على تجارة مكة، فضلاً عن أن سيطرة الفرس على بلاد الشام يتيح لهم القدرة على تحويل الطريق التجاري القادم عبر بلاد فارس إلى موانئ الشام مباشرة ومن ثمة إلى بقية عالم البحر المتوسط. وفي هذا ما فيه من تهديد دائم لتجارة قريش . وبالإضافة إلى هذا التهديد الاقتصادي ، فإن سيطرة الفرس الدائمة على بلاد الشام مع اليمن الواقعة فعلاً تحت سيطرتهم يجعل من قريش وسائر

---

(٥٢) الجواب الصحيح، ج١، ص ٢٧٢.

جزيرة العرب واقعة بين فكي كماشة، ويجعل استقلال العرب جميعاً مهدداً من جانب الفرس. ومع كل هذه الأخطار المحتملة ، فإن المشركين في مكة تغاضوا –أو جَهِلوا– عنها، وأعلنوا فرحهم بانتصار الفرس وهزيمة الروم لإغاظة المسلمين وتبديد آمالهم في انتصار دعوة الحق .

ثانياً : إدراك المشركين في مكة أن تلك الحرب الكبيرة بين الفرس والروم قد طفحت بالمشاعر والحوافز الدينية وأن المنتصر فيها يعني ، من وجهة نظرهم، تفوق عقيدته وديانته على عقيدة وديانة خصمه، فوجدوا في انتصار الفرس فألاً حسناً ودليلاً على أن عقيدة قريش الوثنية هي التي سوف تتغلب على عقيدة الإسلام في النهاية .

ثالثاً : أن الحرب الرومية الفارسية في ميزان الإسلام هي حرب بين دولتين كافرتين تشكلان خطراً متساوياً على الإسلام في المستقبل. بل إن خطر الروم كان أشد وأطول من خطر دولة الفرس التي انتهى أمرها زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٥٣) . ولم يكن هناك عهد ولا حلف يربط المسلمين

---

(٥٣) جاءت رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لفارس نطحة أو نطحتان، ثم قال : لا فارس بعدها أبداً، والروم ذات القرون كلما ذهب قرن خلف قرن هبهب إلى آخر الأبد) . انظر: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري) : مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت ١٣٨٠هـ، ج٢١، ص ٩ ؛ وقد أورد علاء الدين الهندي الحديث لكنه يختلف في جزئه الأخير ونصه هو : (فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا أبداً. والروم ذات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن أهل صبر وأهل آخر الدهر ...) انظر : علاء الدين الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، حلب ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ج١٢، ص ٣٠٣.

بالروم حتى يحزنوا لهزيمتهم. ولا مصلحة للمسلمين في انتصار إحدى القوتين على الأخرى إلا بالقدر الذي يخدم دعوة الإسلام في نهاية المطاف. والراجح أن المسلمين تمنوا انتصار الروم لإغاظة المشركين فقط ورداً على شماتتهم التي أظهروها حين سمعوا بانتصار الفرس على الروم .

وقد دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بهزيمة الروم وشماتة المشركين، فكان الرد على تلك الشماتة التي أظهرها المشركون أن أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم صدر سورة الروم ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . فأخبر القرآن أن الروم غُلبت في تلك الجولة التي سقطت فيها بلاد الشام وبيت المقدس في أيدي الفرس، والتي فرح بها المشركون ووجدوا فيها فرصة للشماتة بالمسلمين والتفاؤل بنصر العقيدة الوثنية على عقيدة التوحيد وأخبر بمكان المعركة وهي أدنى الأرض إلى أرض العرب(٥٤) في الشام . ثم أخبر بالأمر الأهم وهو انتصار الروم الذي سيحدث في المستقبل القريب بعد بضع سنين، والبضع كما فسَّره النبي صلى الله

---

(٥٤) ذكر ابن كثير أن ابن عباس وعكرمة وغيرهما قالوا بأن الروم غُلبت بين أذرعات وبصرى وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز ، انظر : تفسير القرآن العظيم، ط بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م، ج٥، ص ٣٤٧ ؛ ونقل القرطبي عن مقاتل أن غلبة الروم كانت بالأردن وفلسطين . وقد ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى الإشارة إلى إعجاز آخر في الآية ، فقالت إن المقصود بأدنى الأرض هو أخفض بقعة على سطح الأرض وهي منطقة الأغوار والبحر الميت بالأردن وفلسطين، انظر كتاب " إنه الحق " إصدار هيئة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ، الحلقة العاشرة، أخبار كونية جغرافية، ص ٦٨ – ٧٠.

عليه وسلم هو دون العشر (٥٥) . والأمر كله لله من قبل ومن بعد، وهو ينصر من يشاء. وعندما يتحقق ذلك النصر الموعود للروم يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء. ذلك أن شماتة المشركين ستعود عليهم. ومن عجب أن انتصارات الروم القادمة سوف تتزامن – كما سنرى – مع انتصارات المسلمين، وعندئذ لا يكون فرح المؤمنين بنصر الروم فقط بل بنصر الله لهم على المشركين. وهذا الخبر المعجز بانتصار الروم بعد بضع سنين، ليس نبوءة تُقال أو توقع يحدث. بل هو وعد من الله لا بد من وقوعه على أرض الواقع لأنه صادر من خالق الكون ومقدّر الأشياء صاحب المشيئة المطلقة بحيث لا يكون في الوجود إلا ما يريد ويشاء ويختار (٥٦) .

وخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه من عند النبي صلى الله عليه وسلم جذلاً فرحاً وهو يقرأ تلك الآيات البينات بأعلى صوته ليسمع كفار قريش فقال له الملأ من المشركين (ما هذا يا ابن أبي قحافة لعله مما يأتي به صاحبك ؟ قال: لا والله ولكنه كلام الله وقوله – تبارك وتعالى – قالوا : فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين، فراهنهم أبو بكر ففتح الله للروم على فارس دون التسع، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين) (٥٧) . بعد أن تحققت المعجزة على أرض الواقع .

---

(٥٥) أبو إسحاق الفزاري، كتاب السير، ص ٣١٧، رقم ٦١١، وانظر بقية المصادر الواردة في حاشية رقم (٤٧)، وقال الزجّاج : البضع : القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال المبرد: البضعَ ما بين العقدين في جميع الأعداد. انظر : الطبرسي : مجمع البيان، ج٢١، ص ٦.

(٥٦) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص ٣٤٩ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص ٥-٧.

(٥٧) ابن تيمية : الجواب الصحيح، ج١، ص٢٧٢، وانظر أيضاً : مسند الإمام أحمد، ج١، ص ٢٧٦، ٣٠٤ ؛ تحفة الأحوذي، ج٩، ص ٥١، ٥٣ ؛ الحاكم : المستدرك، ج٢، ص ٤١٠.

أما الطبري فيُقدّم رواية أكثر تفصيلاً . حيث أورد في تاريخه خبر الرهان بسنده فقال: (.... فخرج أبي بكر الصديق إلى الكفار، فقال أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحون ، ولا يُقرنَّ الله أعينكم، فوالله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أُبيّ بن خلف الجمحيّ، فقال : كذبت يا أبا فصيل، فقال أبو بكر : أنت أكذب يا عدو الله. فقال أناحبك عشر قلائص(٥٨) ، مني عشر وعشر قلائص منك، فإن ظهر الروم على فارس غرمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فقال : ما هكذا ذكرتُ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل، فخرج أبو بكر فلقي أبياً، فقال : لعلك ندمت. قال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، قال : قد فعلت)(٥٩) .

وكيفما كان الأمر ، فقد ترتب على اجتياح الفرس لفلسطين أن هاجر السواد الأعظم من أهلها إلى مصر، فاستقبلهم بطريرك الأسكندرية يوحنا الرحوم وأكرمهم وقدّم لهم كل ما كان يعوزهم من قوت وملبس ومأوى، وأرسل رجلاً من قبله إلى بيت المقدس، بعد أن زوده بالأموال والقمح والملابس ليساعد بها الذين مكثوا في ديارهم، كما أرسل أموالاً ورجالاً ليفتدي بعض الأسرى(٦٠) .

---

(٥٨) المناحبة : المخاطرة والمراهنة . والقلائص : جمع قلوص وهي الإبل الشابة.

(٥٩) تاريخ الطبري، ج٢، ص ١٨٤-١٨٥. وكان الرهان في مكة قبل تحريم القمار لذلك لما كسب أبو بكر الرهان الأخير من ورثة أبي بن خلف وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (هذا السحت تصدق به) . انظر : تفسير ابن كثير، ج٥، ص ٣٤٣ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص ٣ ؛ ابن عساكر : تاريخ دمشق، ج١، ص ٣٥٨ ؛ السيوطي : الدر المنثور، ج٥، ص ١٦٤.

(٦٠) يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٨ ؛ بتلر : فتح العرب لمصر، ص ١٠٣ ؛ العريني : مصر البيزنطية، ص ٣٨٧.

ولم يقتصر الغزو الفارسي لدولة الروم على انتزاع بلاد الشام، بل وجّه الفرس للروم ضربة قاصمة أخرى بعد فترة قصيرة من احتلالهم لبيت المقدس. ففي سنة ٦١٧م سار جيش فارسي كبير نحو مصر، فانتزع أولاً مدينة الاسكندرية من الروم بعد حصار طويل، ويبدو أن ذلك طبقاً للسياسة العسكرية التي اتبعها الفرس بالشام، وذلك بالسيطرة على السواحل أولاً لمنع تدفق النجدات من العاصمة القسطنطينية عبر البحر، ثم التوغل بعد ذلك للسيطرة على داخل البلاد، وقد نهب الفرس الاسكندرية، ثم دبروا مذبحة راح ضحيتها الآلاف من رجال الاسكندرية، فغادر بطريرك الإسكندرية يوحنا الرحوم إلى قبرص حيث توفي بها، كما هرب حاكم مصر نيكتاس إلى القسطنطينية. ثم توغل الفرس في ديار مصر جنوباً واستولوا على كل ما يقع إلى جنوب الدلتا، فوصلوا الصعيد، ونهبوا كل المناطق التي مروا بها وتقدموا جنوباً حتى وصلوا النوبة(٦١) .

وكان فقدان مصر كارثة ثقيلة على دولة الروم، نظراً لأن مصر كانت مخزن القمح للقسطنطينية، إذ أن توقف إمدادات الحبوب المصرية كان له أثره المباشر الثقيل على الأحوال الاقتصادية في العاصمة(٦٢) . حيث اشتد القحط في القسطنطينية، وغلت أسعار المؤن في الوقت الذي أصبحت فيه خزينة الامبراطورية خاوية الأمر الذي دفع حكومة هرقل لزيادة الضرائب مما ولَّدَ حالة من التذمر والضجر، ولم يحل دون اندلاع الثورة ضد هرقل سوى ما كان له من رصيد في قلوب مواطنيه بعد أن خلصهم من ظلم وعسف فوقاس(٦٣) . ومما زاد الأمر سوءاً

---

(٦١) يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٨ ؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٢٢١ – ٢٢٥ .

(62) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196 .

(٦٣) يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٨ – ٥٤٩.

بالنسبة لدولة الروم أن السكان النساطرة والمونوفزتيين في بلاد الشام ومصر رحبوا بالغزو الفارسي لبلادهم ، وفضّلوا الهيمنة الفارسية على الرومية بسبب ما عانوه من اضطهاد أباطرة الروم لهم إبان الحقب الماضية، فنال أولئك السكان عطف وعناية الفرس(٦٤) . الأمر الذي يشير إلى تصميم الفرس على ضم تلك البلاد التي انتزعوها إلى امبراطوريتهم الواسعة .

وفي الوقت الذي كان فيه الفرس يزحفون غرباً للاستيلاء على مصر كان جيش فارسي آخر بقيادة شاهين يجتاح آسيا الصغرى ناهباً ومخرباً كل ما يجده في طريقه حتى وصل إلى خلقدونية فانتزعها من الروم. وأقام الجيش الفارسي معسكره بجوار خريسبولي Chrysopolis (سكوتاري الحالية) مواجهاً للعاصمة القسطنطينية التي لم يعد يفصله عنها سوى مضيق البسفور، الأمر الذي أوقع الخوف والفزع في نفوس سكان القسطنطينية(٦٥) .

ونظراً لسيطرة الفرس على معظم بلدان الشرق الأدنى فقد تطلعوا إلى إحياء الامبراطورية الأخمينية القديمة Achaemenids التي عاشت قبل مئات السنين، مثلما تطلع جستنيان إبان سنوات حكمه المبكرة إلى إحياء الامبراطورية الرومانية التي سيطرت في أزمنة سابقة على حوض البحر المتوسط بأكمله(٦٦) . وبالإضافة إلى ما نزل بدولة الروم من خسائر فادحة على أيدي الفرس في الجنوب والشرق ، فقد تعرضت لخطر جسيم من الشمال من قبل حشود الآفار والسلاف الذين انساحوا

---

(64) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196 .

(65) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196 ; Ostrogorsky: op. cit. p.95;
المنبجي : العنوان المكلل ص ٣٣١ ؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٨.

(66) Ostrogorsky: op. cit. p. 95.

في شبه جزيرة البلقان بقيادة خان الآفار، وشنوا سلسلة من الغارات بلغت أسوار القسطنطينية ذاتها وحصل خان الآفار على غنائم نفيسة وأسر الكثير من الروم(٦٧) .

وهكذا بدت الأمبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) في سنة ٦١٩م وكأنها قد هوت إلى أسفل سافلين، وقد ذكر فاسيلييف أن أحد الكتاب الغربيين المعاصرين لتلك الحقبة وهو إيسيدور Isidore أسقف اشبيلية أشار إلى تلك الخسائر التي نزلت بهرقل في حوليته. وأضاف بأن امبراطورية هرقل خسرت في الوقت نفسه بقية ممتلكاتها في أسبانيا لحساب الملك القوطي سوينتيلا Suinthila ولم يبق بيد هرقل سوى جزر البليار(٦٨) .

ويصف المطران يوسف الدبس أثر هذه الهزائم المتلاحقة على هرقل فيقول عنه : (فضاق ذرعه عن تحمل هذه المصائب والمصاعب فعزم على الفرار والعزلة في افريقيا، بل شحن كل ما كان نفيساً في سفن وأمر أن تمخر إلى قرطاجنة، فثار عاصف شديد غرّق بعض هذه السفن وكسر بعضها، وذاع خبر عزم الملك على الاعتزال فاحتشد جم غفير حول القصر وكان بعضهم يصيح إليه بألا يغادرهم وبعضهم يهدد بقتله إن أصر على عزمه. فرق الملك لهم، وكان لما أبدوه من التعلُّق به وقع شديد في قلبه فاستدعى البطريرك إليه، وسار معه إلى كنيسة القديسة صوفيا فحلف هناك يميناً على أنه لا يغادر عاصمة ملكه. فجأر الشعب بالدعاء له، وأكثروا من مظاهر السرور التي أنْستهم إلى وقت تراكم المصائب عليهم(٦٩)).

---

(67) Ibid: p.95; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196 .

(68) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196 .

(٦٩) تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٤٩.

والمتأمل في الحالة التي وصلت إليها الأمبراطورية البيزنطية خلال سنتي ٦١٩-٦٢٠م تبدو له وكأنها قد وقعت في هوة سحيقة لا سبيل إلى الخروج منها ، بل وكأنها في طريق السقوط والاندثار، ومع ذلك ظلت الحقيقة القرآنية ثابتة بأن الروم سوف يغلبون في نهاية المطاف. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل كانت هذه الهزيمة الثانية بسقوط مصر في أيدي الفرس وحصار القسطنطينية بعيدة عن مصادرنا الإسلامية؟ الحق أن مصادرنا لم تهمل هذه الهزيمة الثانية بل أشار بعضها إليها لا سيما من جانب بعض المفسرين، فعلى سبيل المثال نجد أبو حيان يورد رأياً آخر في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ بالقول (بأن المعنى هنا يتضمن غلبهم مرتين) (٧٠) . وهذه إشارة إلى هزيمتهم الأولى بسقوط بلاد الشام، وهزيمتهم الثانية بفقدان مصر ومحاصرة القسطنطينية واجتياح الآفار والسلاف للبلقان حتى أسوار القسطنطينية. ويفسر هذا الترمذي برواية أخرى حيث يقول : (فمضت ست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر) (٧١) وذلك عندما حدثت هذه الغلبة الثانية، وهذا الرهن كان عشر قلائص، لذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم : فزايده في الخطر وماده في الأجل كما ذكرنا من قبل. ومن الطبيعي أن يقبل المشركون وعلى رأسهم أُبي بن خلف الجمحي الرهان الجديد، بعد أن كسب الرهان الأول وبعد أن أيقن المشركون أن سير الحرب لصالح الفرس، وأن امبراطورية الروم على وشك الزوال.

---

(٧٠) أبو حيان (محمد بن علي الاندلسي، ت ٧٥٤هـ) البحر المحيط، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ج٧، ص ١٦١.

(٧١) أخرجه الترمذي في باب التفسير، سورة الروم برقم ٣٢٤٥ ، ٣٢٤٦ وقال عنه حديث حسن صحيح غريب، وانظر أيضاً تحفة الأحوذي، ج٩، ص ٥١ – ٥٤ .

وإذا تأملنا هذه السنوات الست التي تلت سقوط بيت المقدس بيد الفرس، منذ سنة ٦١٤ وحتى سنة ٦٢٠م، والتي كانت كوارث متلاحقة وشدائد مهلكة على امبراطورية الروم، وقارناها بما كان يجري في مكة فقد جاءت مثلما تفاعل المشركون، حيث جاءت قاسية وشديدة على الأقلية المسلمة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم. فقد اتبع المشركون أساليب كثيرة في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، مثل محاولات التأثير على عمه أبي طالب لوقف دعوته أو التخلي عنه، والتهديد بمنازلة بني هاشم، والاتهامات الباطلة للنبي صلى الله عليه وسلم، والسخرية والاستهزاء به، بل والاستهزاء بالقرآن والمطالبة بالمعجزات، وترهيب المسلمين والاعتداء عليهم، والتعذيب الجسدي للمستضعفين من المسلمين، الأمر الذي أدى إلى هجرتي الحبشة، ثم محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم والمقاطعة الشاملة لبني هاشم في شعب أبي طالب، وغير ذلك من الشدائد التي أنزلها المشركون بالنبي وأصحابه في مكة(٧٢) .

تراجع هرقل – كما رأينا – عن قرار الفرار إلى شمال افريقيا وذلك بفضل وقوف جماهير القسطنطينية ضد هذا القرار. كما كان للبطريرك سرجيوس دوره في إعادة الهدوء إلى نفس هرقل بأن أبدى استعداده لتقديم كل ثروات وكنوز الأديار والكنائس بما فيها آنيتها وشمعداناتها الذهبية والفضية للامبراطور على سبيل القرض حتى يتمكن من تجنيد الجنود والاستعداد للحرب ضد الفرس. فتسلم هرقل

---

(٧٢) انظر تفاصيل ذلك في : أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ج١، ص ١٤٧ – ١٩٤ ؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص ١٦٥ – ٢٤٠ ؛ محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، الرياض ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج١، ص ٨٧ – ١٨٦.

تلك النفائس في سنة ٦٢٠م وأرسلها إلى دار الضرب كي تسك عملات جديدة(٧٣) . وإذا أمعنا النظر في هذا الأمر نجده يحدث لأول مرة في تاريخ الدولة البيزنطية أن تصبح ثروات الكنيسة في خدمة الحرب وأصبح هذا عادة سارية فيما بعد. بل يمكن القول إن كل القيادات الكنسية والمنظمات الرهبانية، فيما بعد، وجدت في هذا سابقة لاستخدام أموال الأديار والكنائس لحرب المسلمين على مدى القرون التالية سيما في عصر الحروب الصليبية .

شرع هرقل في رسم خططه الحربية وجند عدداً ضخماً من الجنود ودربهم لعدة أشهر وألقى فيهم خطبة يشجعهم ويرفع روحهم المعنوية ويتعهد بالقتال إلى جانبهم، وراسل خان الآفار في الشمال، حتى يدفع خطره، فأرسل إليه عدداً من الرهائن البارزين ومبلغاً من المال(٧٤) . وبعد أن أكمل استعداداته ذهب إلى كنيسة أياصوفيا في ابريل سنة ٦٢٢م ليضفي على حربه الصبغة الدينية وجثا على ركبتيه خاشعاً مناجياً ربه بقوله : (اللهم لا تسلمنا لأعدائنا جزاءً لآثامنا بل ارفق بنا وأولِنا الظفر لينكف الأشرار عن الاعتداء على ميراثك) (٧٥) . وبعد الابتهال والتوسل أمسك الامبراطور بأيقونة المسيح واتخذها لواءً له . وبدأت الحرب في مشاعر دينية ملتهبة لم تعرف من قبل في دولة الروم . بل واعتبرت كأنها أول حرب صليبية في التاريخ(٧٦) .

---

(73) Theophanis; op. cit. p.466 ; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197;
يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٥٠ ؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(74) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197;
يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٥٠.

(٧٥) يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٥٠ .

(٧٦) هـ. سانت : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٣٣ – ٢٣٤؛ حسنين ربيع ، المرجع السابق، ص ٦١ – ٧٢.

وإذا تأملنا هذا التحول الذي حدث منذ أن تخلى هرقل عن قرار الفرار إلى أفريقيا سنة ٦٢٠م وحتى اكتمال استعداداته سنة ٦٢٢م نجده يتزامن مع تحول بدأ يحدث في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أسلم في موسم الحج من سنة ١١ من النبوة الموافق لسنة ٦٢٠م ستة رجال من أهل يثرب، فعادوا إلى يثرب وأفشوا خبر النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء وفد في العام التالي سنة ٦٢١م فبايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وأرسل معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن، فانتشر الإسلام في المدينة . حتى جاء في موسم الحج التالي سنة ٦٢٢م وفد من المسلمين في المدينة كان عددهم سبعين رجلاً فبايعوه على السمع والطاعة والنصرة في الحرب . وهذه بيعة العقبة الثانية التي تعتبر نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة الإسلامية(٧٧) . وهكذا تحولت الأمور عكس ما كان يتفاعل به المشركون ويستفتحون ويأملون، وجاءت موافقة لما كان يستفتح به المسلمون ويأملون !!!

بعد أن فرغ هرقل من تدريب جيشه وتجهيزه قام بحملته الأولى الناجحة في سنتي ٦٢٢-٦٢٣م فعبر البسفور في سنة ٦٢٢م ووصل إلى قيصرية في كبادوقيا في خريف عام ٦٢٢م ثم اتجه شرقاً إلى أرمينية بقصد مهاجمة بلاد فارس نفسها وفي أرمينية التقى بجيش الفرس بقيادة شهر باراز، لكنه تحاشى مواجهته وجهاً لوجه، واتبع معه أساليب الخِدَع العسكرية مثل نصب الكمائن والتظاهر بالهرب والانقضاض عليه مرة أخرى، وبعد أن أرهق الجيش الفارسي بتلك الخطط انقض عليه في معركة حاسمة فلاذ جنود الفرس بالفرار فتعقبهم الروم وقتلوا أعداداً كبيرة منهم، ووقع معسكر الفرس بكل ما حواه غنيمة سائغة للروم وذلك في سنة ٦٢٣م

---

(٧٧) انظر : العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ١٩٤ - ٢٠٠ ؛ مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٢٤٤ - ٢٥٦ ؛ محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ج١، ص ٢٣٢ - ٢٤٥ .

أي بعد تسع سنين من سقوط بيت المقدس. وهو أول نصر يحرزه الروم على الفرس بعد أن ظلوا يخسرون كل معاركهم أمام الفرس طوال عشرين سنة مضت من عمر الحرب. وترك هرقل جيشه مرابطاً في أرمينية وعاد إلى القسطنطينية عندما سمع أن الآفار نقضوا الصلح مع الروم وأنهم يتأهبون لمهاجمة بلاده(٧٨) .

وإذا تأملنا هذه الحملة الأولى الناجحة لهرقل نجدها تزامنت مع حوادث عظيمة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ففي سنة ٦٢٢م كانت الهجرة النبوية إلى المدينة التي كانت نقطة تحول في تاريخ البشرية بأكمله، حيث وضع النبي قواعد الدولة الإسلامية في المدينة(٧٩) . وقد قامت تلك الدولة على أساس العقيدة بين المسلمين حيث نصت الصحيفة المشهورة – التي كانت بمثابة دستور الدولة الجديدة – في بندها الثاني على (أنهم أمة من دون الناس) أمة تربط أفرادها رابطة العقيدة وليس رابطة الدم(٨٠) . وفي سنة ٦٢٣م بدأ تشريع الجهاد بنزول قول الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾(٨١) ، وبدأت خلال سنة ٦٢٣م طلائع حركة الجهاد(٨٢) .

أما الحملة الثانية التي قام بها هرقل وأحرز فيها سلسلة من الانتصارات الرائعة على الفرس فقد جرت حوادثها خلال سنة ٦٢٤م، إذ تمكن هرقل من تجديد

---

(78) Theophanis: op. cit. pp. 468 – 471; Stratos: op. cit. vol. I, pp. 139-143; يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٥٠؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٢٣٧ – ٢٣٩.

(٧٩) انظر : حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٨٠) العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ٢٩٢؛ محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط مصر بدون تاريخ، ص ٤١–٤٧.

(٨١) سورة الحج : آية ٣٩.

(٨٢) انظر : العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص ٣٤٥ – ٣٤٨.

الصلح مع الآفار عن طريق زيادة الأتاوة التي يدفعها لهم. ثم عبر البسفور في مارس ٦٢٤م واتجه بجيشه الضخم، الذي بلغ نحو ١٢٠٫٠٠٠ ألف رجل ، إلى الشرق حتى وصل إلى أرمينية وتابع سيره حتى دخل أرمينية الفارسية فاستولى على عاصمتها دوفين Dovin وأحرقها وعلى مدينة نقشفان Nakhchevan ، وتقدم هرقل صوب بلاد فارس عبر أذربيجان ، ولما سمع كسرى أبرويز بحملة هرقل جمع جيشاً كبيراً واستعد لمواجهته، والتقى الجانبان عند مدينة غانزاك Ganzac عاصمة أذربيجان، وأحرز هرقل نصراً كبيراً، فلاذ كسرى بالفرار وتبعه جيشه فطاردهم الروم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، واستولى هرقل على غانزاك وأحرق معبد النار الشهير بها ودمرها انتقاماً لما فعله الفرس في بيت المقدس، ثم طارد هرقل كسرى وفلوله إلى مدينة تبريز في جنوب أذربيجان. ولم يعد في وسع كسرى الصمود في ميدان مكشوف فلجأ إلى سياسة الأرض المحروقة المتمثلة في حرق كل ما يمكن أن يفيد منه جيش هرقل من أعلاف وأقوات. ورغم ذلك فقد وصل هرقل إلى تبريز وأحرقها ، وظل كسرى يتقهقر وهرقل يقفو أثره حتى وصل إلى بلاد ما بين النهرين. ولما كان شتاء عام ٦٢٤م شديد البرودة، فقد قرر هرقل الانسحاب شمالاً إلى إقليم القوقاز للتزود بالمؤن من جانب الشعوب القوقازية مثل الكرج والأبخاز ، وهي شعوب مسيحية تميل إلى الروم، وكان قد وقع في أسر هرقل نحو خمسين ألف من الفرس، فأطلق سراحهم بعد أن أصبحوا في حالة سيئة من شدة البرد(٨٣) .

---

(83) Sebeos: op. cit. pp. 80-82; Theophanis: op. cit. pp. 471 – 475; Ostrogorsky : op. cit. p. 102;
ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٤١ – ٢٤٥ .

والمتأمل في هذه الحملة الثانية التي قام بها هرقل ضد الفرس سنة ٦٢٤م والمعارك الكبيرة التي خاضها يجدها وقعت في السنة نفسها التي وقعت فيها غزوة بدر التي حدثت في رمضان من السنة الثانية للهجرة الموافق لشهر مارس سنة ٦٢٤م(٨٤) . وإذا ما قارنا معركة بدر مع تلك المعارك التي دارت بين الفرس والروم في سنة ٦٢٤م نجدها – بالمقاييس المادية – معركة صغيرة محدودة، لا تمثل مع تلك الحرب إلا مثل اشتباك صغير بين طلائع تلك الجيوش التي كانت الحرب بينها عالمية بالمفهوم المادي . وتتضح المقارنة الدقيقة بينهما إذا ما تذكرنا أنه وقع في أسر المسلمين في معركة بدر سبعين أسيراً من المشركين بينما وقع في أسر الروم خمسين ألف أسير من الفرس . وإذا كان هرقل قد ظن أنه بتلك الانتصارات في طريقه إلى أن يصبح سيداً على العالم بعد أن غزا الفرس في عقر دارهم وأن نهاية الحرب ستكون في صالح الروم، فإن مشيئة الله وإرادته فوق كل شئ، ذلك أن معركة بدر هي التي قررت مصير الجماعة المؤمنة ورسمت مستقبل الفرس والروم، بل ورسمت مستقبل البشرية جمعاء. ولذلك فإن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قبل خوض معركة بدر عندما قال (اللهم إنَكَ إنْ تهلِكْ هذه العِصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض) (٨٥) . كان دعاءً عميقاً، فنصره الله مع أصحابه ليكون ذلك نقطة الإنطلاق لعقيدة الإسلام لتسود على عقائد الفرس والروم معاً. وهذا

---

(٨٤) انظر عن غزوة بدر : العمري : السيرة النبوية الصحيحة : ج٢، ص ٣٥٤ – ٣٧٣؛ مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٣٣٧ – ٣٦٦؛ محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ج٢، ص ٥١ – ١٥٥ .

(٨٥) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، ص ٨٤ ؛ والإمام أحمد في مسنده، ج١، ص ٣٠ ؛ والترمذي في أبواب التفسير، تفسير سورة الأنفال، حديث رقم ٥٠٧٥ ؛ وأخرجه البخاري في كتاب المغازي باب قصة غزوة بدر بلفظ (... اللهم إن شئت لم تعبد) برقم (٣٩٥٣) فتح الباري، ج٧، ص ٣٣٥.

يعطينا معنىً أعمق لقوله تعالي في سورة الرسوم ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾. فالمعنى فرح المؤمنين بنصر الله لهم في بدر نصراً عظيماً كبت به المشركين وكسر شوكتهم ورد عليهم شماتتهم. يدل على ذلك ما حدث من استقبال حافل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما عاد من بدر إلى المدينة حيث لقيه من لم يحضر معركة بدر من المسلمين يهنئونه بنصر الإسلام(٨٦) وليس بنصر الروم، والفرح فيما يتعلق بنصر الروم هو الفرح فقط بتحقّق المعجزة العجيبة التي أخبر الله بها عندما سقطت بيت المقدس بيد الفرس، فانتصار الروم هو إعجاز ودليل من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن هو من عند الله الذي أنزله بالحق على نبيه وليس افتراءً مثلما زعم المشركون !!! ذلك أن نصر الروم في حد ذاته لم يعد يعني شيئاً بالنسبة للمسلمين . فبعد تشريع الجهاد لم يعد للجدل مع المشركين مكان وأصبحت كلمة الفصل معهم في ميادين الجهاد. إذ لا بُدَّ من القضاء على الشرك والجاهلية .

أمضى هرقل شتاء ٦٢٤م في منطقة القوقاز فحاول كسرى أبرويز الانتقام لهزائمه فأرسل ثلاثة جيوش جديدة عليها أشهر قادته مثل شهر باراز، وشاهين المتمرسين في حروب الروم، لكن هرقل استطاع أن يضم إليه عدداً من قبائل القوقاز، وبعد مناورات بارعة وجهود مضنية، تمكن هرقل من إنزال الهزائم المتتابعة بتلك الجيوش وتشتيت شملها. ولم يمنع هرقل– بعد سيطرته على أرمينية –

---

(٨٦) انظر : سيرة ابن هشام : تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة ، بدون تاريخ، ج٢، ص ٤٢٩ ؛ صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم، مكة المكرمة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٢٥٤.

من العودة لمهاجمة بلاد فارس في ذلك الوقت، سوى انسحاب حلفائه من القوقازيين وعودتهم إلى ديارهم(٨٧) .

علم هرقل وهو في أرمينية أن الآفار تحالفوا مع الفرس لمهاجمة القسطنطينية، وأن الفرس بدأوا الاستعداد لإرسال قوات جديدة نحو القسطنطينية. فغادر هرقل أرمينية نحو بلاد الشام عائداً إلى بلاده عبر قيليقية. لكنه واجه في قيليقية جيشاً فارسياً كان يقوده شهرباراز، وتعجل جنود الروم في الهجوم على الفرس عند نهر سيحان(٨٨) في آخر مارس سنة ٦٢٥م. الأمر الذي أحدث اضطراباً في صفوف الروم وتمكن الفرس من هزيمتهم ، وتمكن هرقل بعد ذلك من جمع بقايا جيشه وانسحب شمالاً إلى سيواس لمراقبة تحركات الفرس والآفار(٨٩) .

ومن عجب أن هذه الهزيمة التي حصلت لهرقل قد تزامنت مع معركة أحد التي حدثت في منتصف شوال سنة ٣ هـ(٩٠) الموافق لنهاية مارس ٦٢٥م. فكانت الكبوة الوحيدة التي حصلت لهرقل منذ بداية حملاته سنة ٦٢٢م وحتى انتصاره النهائي والحاسم في سنة ٦٢٨م . مثلما كانت معركة أحد الخسارة الوحيدة للمسلمين منذ معركة بدر وحتى فتح مكة .

وحشد كسرى من جديد كل ما أمكنه من قوات وعهد بقيادتها إلى شاهين وأرسلها لمقاتلة هرقل ، في حين سار شهر بازار بقواته لمهاجمة القسطنطينية مع

---

(87) Theophanis: op. cit. pp. 475 – 480 ; Sebeos: op. cit. pp. 81-83; Stratos: op. cit. pp. 158 – 159 ;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٤٥ – ٢٤٩.

(٨٨) وهو النهر الذي تطلق عليه المراجع الغربية اسم ساروس sarus .

(89) Theophanis: op. cit. pp. 481 – 484 ;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٥١ – ٢٥٣.

(٩٠) انظر : العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص ٣٧٨.

الآفار. وقد تمكن هرقل من مواجهة كل ذلك بنجاح باهر، فقد أرسل قسماً من جيشه للدفاع عن القسطنطينية، وأرسل تعليمات عسكرية في كيفية مواجهة الهجوم المزدوج على عاصمته، ثم عهد هرقل لأخيه تيودور بمواجهة شاهين، وسار ببقية جيشه إلى جنوب شرق البحر الأسود بغية التحالف مع الخزر ومع القبائل القوقازية المسيحية . ونجحت تلك الخطط فقد تمكن المدافعون عن القسطنطينية في صيف عام ٦٢٦م من إفشال حصارها وإحباط هجوم الآفار والفرس واستطاع شقيق هرقل التغلب على شاهين ونجح هرقل في أن يضم إليه أربعين ألف مقاتل من الخزر وغيرهم من القبائل القوقازية(٩١).

ومن عجب أن فشل حصار القسطنطينية من جانب الآفار والسلاف والفرس في صيف سنة ٦٢٦م قد أعقبه ببضعة أشهر حصار المسلمين في المدينة من جانب الأحزاب في غزوة الخندق وذلك في شوال سنة ٥هـ الموافق لشهر فبراير ٦٢٧م وفشل الأحزاب في اقتحام المدينة مثلما فشل الفرس والآفار والسلاف في اقتحام القسطنطينية ، وهناك تشابه كبير بين حوادث حصار كلا العاصمتين حتى انتهى حصارهما بالفشل الذريع. وهذا التشابه العجيب في حوادث حصار القسطنطينية مع حصار المدينة يوضح أن الله تعالى قدَّر أن تجري حوادث الحرب الفارسية الرومية وفقاً لما استفتح به المسلمون والمشركون عن تلك الحرب(٩٢) .

---

(91) Theophanis: op. cit. pp. 484 – 486 ; Stratos: op. cit. pp. 161 – 193 ; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197; Ostrogorsky : pp. 102 – 103;
يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٠٠ ؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٥٤ – ٢٥٧ ، ٢٩٤ – ٣٢٤ .

(٩٢) انظر عن حوادث حصار القسطنطينية : ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٩٥ – ٣١٨ وقارن حوادث حصار القسطنطينية عند ليلى عبد الجواد بحوادث حصار المدينة عند كل من : العمري : السيرة النبوية ، ج٢، ص ٤١٨ – ٤٣٢؛ مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء=

وبدأت حملة هرقل الأخيرة والحاسمة في سنة ٦٢٧م حيث زحف من أرمينية متجهاً بقواته قاصداً قلب بلاد فارس، والتقى بجيش الفرس الرئيس الذي كان يقوده رازات Rhazates . ودارت المعركة الحاسمة في ١٢ ديسمبر ٦٢٧م بالقرب من خرائب بلدة نينوى القديمة (بجوار الموصل الحالية)، وأحرز هرقل انتصاراً ساحقاً حيث قتل قائد الفرس رازات ، وثلاثة من كبار القادة التابعين له، وأُبِيدَ أكثر من نصف جيش الفرس ولاذ الناجون بالفرار . ولم يتكبد هرقل سوى القليل من الخسائر. ولقد قررت هذه المعركة مصير الحرب، فلم يعد لدى كسرى أبرويز من العساكر ما يستطيع به مواجهة هرقل، بالإضافة إلى انهيار معنويات الفرس وسخطهم على ملكهم كسرى الذي أشعل هذه الحرب الطويلة. وأصبح الطريق أمام هرقل مفتوحاً للاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس، واندفع هرقل بجيشه نحو المناطق الفارسية الرئيسة والتي تقع فيها قصور كسرى الشهيرة، فاستولى على قصر داستاجرد Dastagerd وحاز ما فيه من غنائم نفيسة، ودمّر بقية قصور كسرى الأخرى بعد أن غنم ما فيها. وأخذ كسرى يهرب من مدينة إلى أخرى وهرقل يسير في أثره(٩٣) .

وقبل أن يصل هرقل إلى المدائن حدث من التطورات داخل مملكة الفرس ما أوقف الحرب. فقد ثار قباد شيرويه على أبيه كسرى أبرويز واعتقله ثم قتله

=المصادر الأصلية، ص ٤٤٣ – ٤٥٧ ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم، ص ٣٣٨ – ٣٥١ ؛ الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ، ج ٣، ص ٧٩ – ١١٦. لترى التشابه والتماهي العجيب في الحوادث ؛ ويمكن لأي باحث أن يعقد مقارنة بالحوادث المتشابهة في حصار المدينتين في بحث مستقل يبلغ عشرات الصفحات !!!

(93) Theophanis: op. cit. pp. 487 – 500 ; Sebeos : op. cit. p. 83 ;
Stratos : op. cit. pp. 200 – 220 ; Ostrogorosky: op. cit. p. 103 ;
Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197 – 198 ; Moshe Gil: op. cit pp. 7 – 8;
يوسف الدبس : تاريخ سورية، ج٢، المجلد الرابع، ص ٥٥١.

واستولى على العرش في فبراير ٦٢٨م، وأرسل سفارة مع هدايا كثيرة إلى هرقل يلتمس منه عقد السلام بين الجانبين والاعتراف به ملكاً على الفرس ، فرد عليه هرقل يطيب خاطره ويخبره بشروطه للصلح المتمثلة في إعادة الحدود إلى ما كانت عليه قبل قيام الحرب، والجلاء عن جميع البلاد التي استولى عليها الفرس، واطلاق سراح الأسرى مع الضمانات الكافية لعودتهم سالمين إلى ديارهم وإعادة صليب الصلبوت إلى الروم. فالتزم شيرويه بتلبية كل تلك الشروط وتنفيذها على الفور. كما ابتهج شيرويه بما جاء في رد هرقل من أنه يعتبره مثل ابنه، وأصبح شيرويه يعد هرقل بمثابة الأب الروحي له(٩٤). ليس هذا فحسب بل أعلن شيرويه عن أنه يُقدِّم ابنه ووريثه في العرش بوصفه عبداً للامبراطور هرقل(٩٥) .

لقد تزامن هذا النصر الكاسح والنهائي الذي حققه الروم على الفرس مع صلح الحديبية الذي عقده النبي صلى الله عليه وسلم مع قريش، حيث اعترفت فيه قريش لأول مرة بكيان المسلمين بعد أن كانت تعتبرهم جماعة من الصُّباة والأوباش(٩٦) . وقد حدث الصلح في شهر ذي القعدة سنة ٦ هـ الموافق لشهر مارس ٦٢٨م. حيث

---

(94) Sebeos : op. cit. pp. 85 – 87; Stratos: op. cit. pp. 223 – 226 ; Ostrogorsky : op. cit. p. 103.

(95) Ostrogorsky: op. cit. p. 103, and note. I

(٩٦) يدل على وصف الصُّباة عندما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة معتمراً بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فنزل على صديقه أمية بن خلف ثم ذهب معه ليطوف بالبيت، فلقيهما أبو جهل فقال لأمية: (يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد، فقال أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصُّباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينوهم. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً ...) صحيح البخاري، كتاب المغازي حديث رقم ٣٩٥٠، فتح الباري، ج٧، ص ٣٢٩ ؛ ومما يدل على وصف الأوباش ما قاله عروة بن مسعود الثقفي عندما بعثته قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فجلس بين يديه وقال : (يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها ...) مسند أحمد ، ج٤، ص ٣٢٤ .

أنزل الله سبحانه وتعالى سورة الفتح التي بدأها بقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾. ولما تلى النبي صلى الله عليه وسلم السورة على أصحابه قال أحدهم : (يا رسول الله : أفتح هو ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح) (٩٧) . ويوضح الزهري أن صلح الحديبية كان فتحاً بقوله : (فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووُضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر) ويعلق ابن هشام على قول الزهري بقوله : (والدليل على قول الزهري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة، في قول جابر بن عبدالله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف) (٩٨) . ويمكن أن نضيف إلى هذا التوضيح عن فتح صلح الحديبية بالقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم مكث في مكة منذ بُعث ثلاث عشرة سنة وست سنوات قبل صلح الحديبية في المدينة، أي أن المجموع تسع عشرة سنة ولم يفتح المسلمون بلدة مهمة، وإذا نظرنا بعد تسع عشرة سنة من صلح الحديبية نجد المسلمين قد فتحوا بلاد العراق وفارس وأذربيجان وأرمينية وبلاد الشام ومصر والنوبة وليبياء، وهي بلاد واسعة تشمل كل ممتلكات دولة الفرس ومعظم البلاد التي كانت تابعة للروم .

وإذا دققنا النظر في هذا الإعجاز الوارد في صدر سورة الروم يمكن أن نلاحظ ما يلي :

---

(٩٧) سنن أبي داود مع معالم السنن كتاب الجهاد حديث رقم ٢٧٣٦ : مسند أحمد، ج٣، ص ٤٢٠ ؛ مستدرك الحاكم، ج٢ ، ص ٤٥٩ .

(٩٨) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ٢٤٠ .

أولاً : رأينا أن الآيات نزلت بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الفرس سنة ٦١٤م وأن أول نصر أحرزه الروم على الفرس في حملة هرقل الأولى كان سنة ٦٢٣م أي بعد تسع سنوات وهي مدة في إطار البضع الذي هو دون العشر.

ثانياً : إذا أخذنا ببعض آراء المفسرين مثل ابن حيان الذي قال إن قول الله تعالى: ﴿ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ يعني غلبهم مرة ثانية . والمرة الثانية كما ذكرنا كانت بسقوط مصر بكاملها بيد الفرس سنة ٦١٩م وما صاحبه من حصار لعاصمة الروم القسطنطينية، وأن المشركين أخذوا رهن أبي بكر، لذلك عاد فزاد في الرهن ومدَّ في الأجل. وجاء النصر النهائي والحاسم للروم سنة ٦٢٨م والمدة الفاصلة بين التاريخين تسع سنوات وهو في إطار البضع الذي دون العشر. وأي تاريخ من تواريخ انتصارات هرقل من سنة ٦٢٣م حتى سنة ٦٢٨م هو أيضاً في نطاق البضع.

ثالثاً : والإعجاز الأعجب الذي لم يذكره أحد من العلماء المسلمين من قبل – وهـــذا من عظمة هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه – أنه استخدم كلمة ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ولم يستخدم كلمة بعد، إذ أن كلمة (بعد) تعطي معنىً محدداً وهو أن الغلبة للروم سوف تقع بعد بضع سنين، بينما كلمة (في) ذات معنىً واسع رحيب، فهي تعني أولاً بعد بضع سنين وهو ما حدث بالفعل. وتعني ثانياً خلال، أي أن الروم سوف يواصلون انتصاراتهم خلال بضع سنين وهو أيضاً ما حدث بالفعل إذ أن حملات هرقل الثلاث الناجحة ضد الفرس وقعت واستمرت بين سنتي ٦٢٢م و ٦٢٨م وهي مدة ست سنوات تقع ضمن نطاق البضع !!!

وقد يبدو للباحث الذي ينظر فقط في مصادرنا الإسلامية دون النظر للحرب الفارسية الرومية في مصادرها الأصلية. أن هناك اختلاف بين العلماء المسلمين في

تحديد تاريخ نصر الروم على الفرس، فمنهم من قال إنهم ظهروا يوم بدر، ومنهم من قال يوم الحديبية. وهذا الأخير الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية(٩٩) . والحق أنه لا يوجد تناقض مطلقاً بين القولين ، فالذين قالوا بأن الروم ظهروا في يوم بدر، قولهم صحيح فقد انتصر هرقل على كسرى عند مدينة غانزاك عاصمة أذربيجان سنة ٦٢٤م في حملته الثانية وهو العام نفسه الذي وقعت فيه معركة بدر. وكان هرقل قد أحرز نصره الأول على الفرس في السنة السابقة في أرمينية. وظهور الروم الذي تزامن مع صلح الحديبية هو نصر هرقل الأخير والحاسم على الفرس في عقر دارهم كما رأينا.

أرسل هرقل إلى القسطنطينية بياناً رسمياً مبتهجاً فيه بالنصر، ووصف فيه انتصاراته على الفرس، ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية ، وأثناء عودته كان أهالي البلاد التي مر بها يحيونه ويهتفون باسمه، وكان الرهبان يقرعون أجراس الكنائس على طول طريق الامبراطور(١٠٠) . هكذا كانت الفرحة وهكذا كانت الكنائس تدق أجراسها احتفالاً بانتصار الروم بقيادة هرقل. وقد ظن قارعوا تلك الأجراس من رجال الدين النصارى أنهم حققوا النصر الأبدي لدولة الروم، دون أن يعلموا أن مصير امبراطوريتهم كان يُرسم في ذلك الحين – بقدر الله – في جزيرة العرب وأنه لن يمضي عقدين من السنين، إلا وأصوات المآذن بنداء " الله أكبر " يعلو على أجراس تلك الكنائس حين يبدأ التحول الضخم لشعوب تلك البلاد من ظلام النصرانية المحرفة – والمجوسية إلى نور الإسلام .

*****

---

(٩٩) الجواب الصحيح، ج١، ص ٢٧٨

(100) Theophanis: op. cit. p. 504; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 198.

ويتصل بهذا الإعجاز الوارد في سورة الروم إعجاز حديث نبوي تحدث به النبي صلى الله عليه وسلم عن كسرى أبرويز، وهرقل المعروف بلقب قيصر، وذلك أثناء تلك الحرب الدائرة بينهما . حيث قال : (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) (١٠١) . وقد فسَّر النووي وابن حجر الحديث تفسيراً لا يُظهر الإعجاز كاملاً على حقيقته. فقد علق النووي على الحديث قائلاً : (قال العلماء : معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام كما كان في زمنه صلى الله عليه وسلم. فعلَّمنا صلى الله عليه وسلم بانقطاع مُلكهما في هذين الإقليمين فكان كما قال صلى الله عليه وسلم . فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق واضمحل بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٠٢) . وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقاصي بلاده فافتتح المسلمون بلادهما واستقرت للمسلمين ولله الحمد، وأنفق المسلمون كنوزهما في سبيل الله كما أخبر صلى الله عليه وسلم وهذه معجزات ظاهرة) (١٠٣) . أما ابن حجر فقد علَّق على الحديث وقال : (وقد استشكل هذا مع بقاء مملكة الفرس لأن لآخرهم قُتل زمن عثمان واستشكل أيضاً مع

---

(١٠١) صحيح البخاري، واللفظ له، حديث رقم ٣٦١٨، فتح الباري ، ج٦، كتاب المناقب، ص ٧٢٣؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٨، ص ٤٢ – ٤٣.

(١٠٢) يشير إلى إجابة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم حينما بلغه أن كسرى مزق رسالته التي يدعوه فيها إلى الإسلام فقال : (مزق الله ملكه) فجاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم (فأخبره أن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله). انظر : البخاري، كتاب المغازي حديث رقم ٤٤٢٤ (فتح الباري، ج٧، ص ٧٣٢، ٧٣٤)؛ ابن القيم : زاد المعاد ، ج٣، ص ٦٨٩ ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر، ج٢، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ؛ تاريخ الطبري، ج٢، ص ١٣٣.

(١٠٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٨، ص ٤٢ – ٤٣.

بقاء مملكة الروم، وأجيب عن ذلك بأن المراد لا يبقى كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام)(١٠٤) .

والمتأمل في نص الحديث يجد أن الحديث صريح تماماً ولا يحتاج إلى هذا التأويل وإلى حدوث هذا الإشكال عند العلماء المسلمين، فالحديث معناه واضح تماماً، ذلك أن كسرى الذي كان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وأرسل له رسالته المعروفة يدعوه إلى الإسلام هو كسرى أبرويز صاحب ، الحرب على الروم ، وخلفاؤه الذين جاءوا بعده بداية من ابنه شيرويه وحتى آخر ملوك الفرس يزدجرد الثالث، جميعهم عُرفوا بأسمائهم ولم يتسم أو يتلقب أحد منهم بإسم كسرى. فكان كسرى أبرويز آخر الأكاسرة، فلم يأتي كسرى بعده .

أما الأشكال الأكبر الذي حدث لدى العلماء المسلمين فهو بقاء دولة الروم حتى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م عندما فتح العثمانيون القسطنطينية، فحاولوا تفسير الحديث بأنه يعني زوال سلطان الروم عن الشام. ومن الجلي البين أنه لا داعي للإشكال وتأويل الحديث أصلاً . فقيصر الذي كان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وأرسل له رسالته المشهورة يدعوه فيها إلى الإسلام هو هرقل. وهو فعلاً كما أشار نص الحديث آخر القياصرة فلم يأت قيصر بعده قط . ذلك أن الامبراطور هرقل الذي كان يُعرف بلقب قيصر عَمَدَ في سنة ٦٢٩م – بعد انتصاره على الفرس – إلى التخلي عن جميع الألقاب الرومانية القديمة التي كانت تُطلق على الأمبراطور مثل قيصر وأغسطس، وهي الألقاب اللاتينية التي استخدمها الأباطرة منذ قرون كثيرة. فاتخذ هرقل لقباً يونانياً قديماً في تلك السنة هو لقب باسيليوس Basileus وهو اللقب الملكي المعروف عند الإغريق القدماء. وأصبح لقب باسيليوس هو اللقب

---

(١٠٤) فتح الباري (شرح حديث رقم ٣٦١٨)، ج٦، ص ٧٢٣.

الذي يُطلق على امبراطور دولة الروم (الدولة البيزنطية) وهو اللقب الذي أطلقه هرقل على ابنه وقسيمه في الملك قسطنطين ثم على ابنه الآخر هرقلوناس. ومنذ ذلك الحين أُستُبْعِدَ لقب قيصر وفقد أهميته ودلالته وأصبح اسماً عادياً يتسمى به عامة الناس فلم يتلقب أحد من اباطرة الدولة البيزنطية بلقب قيصر حتى سقوط القسطنطينية(١٠٥) . فكان هرقل آخر قيصر، ولم يأت بعده قيصر آخر مثلما نص عليه قول الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وهذا إعجاز باهر ودليل ساطع من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

*****

ويتصل بصلح الحديبية الذي كان فتحاً مبيناً والذي تزامن مع تحقق المعجزة القرآنية بانتصار الروم، أن تفرغ النبي صلى الله عليه وسلم لتبليغ رسالته إلى سائر ملوك وحكام عصره، لا سيما خارج الجزيرة العربية. وكان على رأس أولئك الملوك الذين أرسل إليهم، الامبراطور هرقل الذي حقق لتوه نصراً ساحقاً على الفرس. فأرسل إليه رسالته المعروفة والمشهورة. ومن عجب أن بعض المستشرقين يشكك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل(١٠٦) ، بل والبعض منهم ينفيها مستدلاً بزعم كذوب وهو أن ابن إسحاق، وهو من أقدم كتّاب السيرة لم يذكرها(١٠٧). وهـذا الزعم الكذوب يفضح جهل هؤلاء المستشرقين بالمصادر الإسلامية. فأولاً:

---

(105) Stratos : op. cit. pp. 343 - 344 ; Ostrogorosky: op. cit. p. 106 - 107 ; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 199 ;
العريني : الدولة البيزنطية، ص ١٣١ – ١٣٢.

(106) Runciman: op. cit. vol. I, p. 13.

(107) Caetani, Leon: Annali del L'Islam. (Milano Ulrico Hoepli; 1910) vol. 5 pp. 323 – 324; Mair, William: The Caliphatea its rise, decline, and Fall (Edinburgh John Grant, 1915) pp. 43-44 ;
وانظر أيضاً : عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٤ ؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق، ص ٣٤٤ .

سيرة ابن اسحاق لم تصل كاملة إليهم، لكنها وصلت كاملة إلى كثير من العلماء المسلمين الذين جاءوا بعد ابن اسحاق. فالطبري في تاريخه تحدث عن خبر إرسال رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وأورد نص السند الذي اعتمد عليه وصرح فيه باسم محمد بن إسحاق حتى انتهى السند إلى ابن عباس الذي قال : (حدثني أبو سفيان بن حرب قال : كنا قوماً تجاراً ...) (١٠٨) . ثم أورد الخبر كاملاً بما فيه الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان، ثم أورد نص الرسالة المشهورة وروايات أخرى حول الخبر جميعها عن ابن اسحاق، فكيف يستدل هؤلاء المستشرقون بالقول : إن ابن اسحاق لم يذكرها. وكان تاريخ الطبري متداولاً ومعروفاً لهم ولو راجعوه لوجدوا رواية ابن اسحاق كاملة غير منقوصة !!!

ثانياً : كما أن شيخ الإسلام ابن تيمية أورد الخبر أيضاً عن ابن إسحاق بقوله: (قال ابن إسحاق) (١٠٩) ثم أورد التفاصيل ونص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وختم نقله عن ابن إسحاق بقوله : (وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق، وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن فحفظ ما لا يحفظه غيره) (١١٠). فهل سمع أولئك المستشرقون بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية؟ وهل عرفوا أن كتابه من أوسع المصادر الإسلامية فيما يتصل بالعلاقات مع النصارى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ليس هذا وحسب بل إن معظم من كتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد عصر الطبري أوردوا كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل نقلاً عن ابن اسحاق .

---

(١٠٨) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٤٦ – ٦٥١.

(١٠٩) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسح، ج١، ص ٢٧٩ – ٢٨٢.

(١١٠) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٢.

ثالثاً : والأعجب من هذا كله أن هؤلاء المستشرقين تجاهلوا - أو جَهِلوا- أهم مصدرين لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، بعد القرآن الكريم ، وهما صحيحي البخاري ومسلم ، حيث أورد الشيخان (البخاري ومسلم) خبر إرسال رسالة النبي المشهورة إلى هرقل، ونص الرسالة، والحوار الذي دار بين أبي سفيان وهرقل وأخبار كثيرة تتعلق بموقف هرقل إزاء رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل(١١١) والمعروف لدى العلماء المسلمين الشروط الصارمة التي وضعها البخاري ومسلم لكل راوي في سلسلة السند حتى تُقبل روايته، لدرجة أنهما لا يقبلان رواية ابن اسحاق ولذلك جاءت روايتهما عن رواة آخرين عن الزهري. والمسلم به عند المسلمين أن روايات البخاري ومسلم يفوقان في الموثوقية روايات ابن اسحاق لدرجة أن ابن اسحاق لا يُعد بجانبهما شيئاً مذكوراً فكيف ينكر هؤلاء المستشرقون رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وهي موجودة في الصحيحين. وجاءت أيضاً عن ابن اسحاق خلافاً لزعمهم الكذوب ؟؟؟

ومهما يكن من أمر فقد وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عندما جاء إلى الشام من القسطنطينية في سنة ٦٢٩م، وسار من حمص إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه ليصلي فيه شكراً لله الذي نصره ورد إليه ما فقده. وفي بيت المقدس وصلته رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبي والتي نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب

---

(١١١) البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٧ (فتح الباري ، ج١ ، ص ٤٢-٤٣) ؛ صحيح مسلم مسلم بشـــرح النووي، ج ١٢، كتاب الجهاد والســـير، باب كتب النبي صلى الله عليه وســـلم، ص ١٠٣-١١١.

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (١١٢) .

وقد اتخذ هرقل موقفاً من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، أعدل وأقرب إلى الحق من سائر الزعماء النصارى الذين جاءوا بعده، والذين اتصفت مواقفهم بالتشويه والتلفيق المعجونة بروح الظلم والبغي والعدوان. فأخذ يبحث عن بعض الناس الذين لهم صلة بالنبي صلى الله عليه وسلم، فعلم بوجود جماعة من تجار قريش كان فيهم أبو سفيان، فأحضرهم إلى مجلسه وسألهم عن طريق الترجمان : (أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟) فقال أبو سفيان : (أنا أقربهم نسباً)، فأدناه منه وقرّب أصحابه، وأمرهم أن يواجهوه بالتكذيب إذا كذب في أجوبته. فأخذ هرقل يسأل عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يجيبه بصدق خوفاً أن يؤثر عنه الكذب. ونصوص ذلك التحقيق الذي أجراه هرقل مع أبي سفيان مروية في الصحيحين عن الزهري وفي كثير من مصادر السيرة عن محمد بن اسحاق. واستنتج هرقل من أجوبة أبي سفيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي حقاً وقال في ختام كلامه لأبي سفيان : (فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنُّ أنه منكم، فلو أعلم أني اخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدمه) (١١٣) .

---

(١١٢) البخاري، حديث رقم ٧ (فتح الباري، ج١، ص ٤٣) ؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، ص ١٠٧ – ١٠٨ ؛ الطبري، ج٢، ص ٦٤٨ – ٦٤٩ نقلاً عن ابن إسحاق ؛ ابن تيمية : الجواب الصحيح، ج١ ، ص ٢٧٩ – ٢٨٠ نقلاً عن ابن إسحاق .

(١١٣) البخاري، حديث رقم ٧ (فتح الباري، ج١، ص ٤٣) ؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، ص ١٠٧ ؛ الطبري، ج٢ ، ص ٦٤٨ نقلاً عن ابن إسحاق ؛ ابن تيمية : الجواب الصحيح، ج١، ص ٢٨٤ نقلاً عن ابن إسحاق .

وإذا دققنا النظر لفحص الأسباب الكامنة وراء اتخاذ هرقل لهذا الموقف العادل من دعوة الإسلام فيمكن أن نخرج بالملاحظات التالية :

أولاً : أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وصلت إلى هرقل وهو في ذروة انتصاره على الفرس، وقمة مجده، وأقوى قوته، فشدت انتباهه وأذهلته بمحتواها المخالف تماماً لمحتوى الرسائل والسفارات التي وصلت إلى هرقل في ذلك الحين من ملوك القوى العظمى المعاصرة له. فقد خرج منتصراً في تلك الحرب التي دامت ربع قرن من الزمان، وبعث إليه شيرويه ملك الفرس الجديد بسفارة وهدايا كثيرة يلتمس منه السلام ويعلن خضوعه له – كما رأينا – . والرسالة الثانية التي وصلت إلى هرقل كانت من طرف ملك الهند يهنؤه فيها على انتصاره على الفرس وينشد صداقته مع هدية تمثلت في كمية كبيرة من الأحجار الكريمة. كما بعث ملك الفرنجة داجوبرت Dagobert بسفارة خاصة إلى هرقل يهنؤه على انتصاره ويلتمس عقد سلام دائم مع الامبراطورية البيزنطية(١١٤) . وفي هذه الحال تصله رسالة من رجل لم يسمع به من قبل ، هي رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ليس لتهنئته بانتصاره الكبير على الفرس، وإنما لدعوته للتخلّي عن ديانته النصرانية والدخول في ديانة صاحب الرسالة الجديدة. فكان هذا سبباً جدياً شد انتباه هرقل وجعله يبحث الأمر بجدية بغية الوصول إلى الحقيقة.

ثانياً : لم يكن هرقل يحمل حقداً دفيناً على الإسلام. فلم يسمع به إلا بعد وصول رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك لم يكن يضمر حكماً مسبقاً عن الإسلام ملؤه الحقد والضغينة، وهو ما حصل فيما بعد من جانب الأباطرة الروم ورجال الدين النصارى ، الذين نظروا للإسلام باعتباره قد قهرهم، وانتزع من

---

(114) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 199.

النصرانية أغلى وأبهى وأقدس بلادها سيما مصر والشام، التي ارتبط بها – في نظرهم – أصول النصرانية الأولى ، فجاء حديثهم عن الإسلام معجوناً بالكره والألم. أما هرقل فإن انتفاء الحكم المسبق والتجربة الماضية عنده جعله يبحث حقيقة دعوة نبي الإسلام بصورة موضوعية .

ثالثاً : آمن هرقل وأيقن بصدق نبؤه توصل إليها بنفسه عن طريق ممارسته للتنجيم، ورؤيا رآها في منامه، أن الذين سوف يقضون على امبراطوريته (امبراطورية الروم) شعب يتخذ عادة الختان، فذهب ظنه في بداية الأمر إلى أنهم اليهود، فكان ذلك من الأسباب التي جعلته يقتل اليهود ويجبرهم على التنصر، فلما وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وعرف أنه من العرب الذين يختتنون أيضاً ، أدرك أنه أمام منعطف حاسم سيغير مجرى التاريخ البشري بأكمله، وأن الأمة التي ستقضي على امبراطورية الروم لها صفات تختلف عن سائر القوى التي واجهت الامبراطورية الرومانية طوال أكثر من ألف سنة، منذ أن نشأت روما وحتى عصر هرقل، ومن عجب أن قصة هذه النبؤة التي استقرت في أعماق هرقل، لم يقتصر ذكْرَ خبرها في المصادر الإسلامية(١١٥) فقط . بل وردت في المصادر النصرانية الأرثونكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، مما يجعلها تحوز درجة التواتر، فعلى سبيل المثال، حين تحدثت بعض المصادر النصرانية الشرقية الأرثونكسية عن أسباب قتل هرقل لليهود وتنصيرهم بالقوة، ذكرت أن السبب في

---

(١١٥) البخاري، حديث رقم ٧ (فتح الباري، ج١، ص ٤٣-٤٤) ؛ الطبري، ج٢، ص ٦٤٧ نقلاً عن ابن إسحاق ؛ ابن تيمية : الجواب الصحيح، ج١، ص ٢٨٧ ؛ أبو نعيم : دلائل النبوة، ص٢٩١.

ذلك يعود إلى تأثره بنبؤة رآها في المنام أو عن طريق ممارسة التنجيم بأن الأمة التي سوف تدمر الامبراطورية الرومية هي أمة مختونة(١١٦) .

والأعجب من هذه المصادر التي أوردت خبر هذه النبؤة التي أيقن بها هرقل هي الحولية الميروفنجية(١١٧) التي تُعرف باسم فريديجار Fradegar ومؤلفها لاتيني مجهول، يُرجح أنه بُرجندي. وقد كتب حوليته سنة ٦٥٨م / ٣٧ – ٣٨ هـ، أي بعد سبع عشرة سنة من وفاة هرقل، وهي أقرب المصادر النصرانية التي تحدثت عن النبؤة إلى عهد هرقل، وهي أيضاً أول حولية لاتينية تتحدث عن الفتوحات الإسلامية. وقد افتتح المؤلف حديثه عن الفتوحات الإسلامية بقوله : (إن الامبراطور هرقل – الذي يكتبه بهذا الشكل Aeraglius emperatur – اكتشف خلال ممارسته لعلم التنجيم أن امبراطوريته سوف تؤول إلى الخراب بواسطة أجناس يختتنون. وبسبب ذلك طلب هرقل من الملك الفرنجي أن يُعمِّد (يُنصر) جميع اليهود في مملكته ، وبعث أوامر مشابهة في كل أنحاء امبراطوريته. والتي سرعان ما غزيت من جانب شعب آخر يختتن، وهم المسلمون)(١١٨) . ثم تواصل الحولية الحديث باختصار عن انتصار المسلمين على جيوش هرقل، وفتح بيت المقدس ومصر، والمنطقة الرومانية في شمال أفريقية، والجزية التي صار على

---

(١١٦) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الأسكندرية، ص ٢٢٨ ؛ وانظر أيضاً :
Runciman : op. cit. vol. I, p. 12.
وانظر المصادر في الصفحة نفسها note 2 .

(١١٧) نسبة إلى ميروفنج، وهو أحد أسلاف مؤسس دولة الفرنجة كلوفس. وهذه الأسرة الأولى حكمت دولة الفرنجة ثم جاءت بعدها أسرة شارلمان التي عُرِفت بالأسرة الكارولنجية .

(118) Fredegoriu: Chronicon, ed. B. Krusch, 1888 (Scriptores Merovingicarum), vol. II, pp. 153-154, 162 ; Mabillon, J: Annales Ordins S. Benedicti, I, Paris. 1703. Book XI, par. 39, p. 323 ; Moshe Gil: op. cit. p. 9.

حفيد هرقل قنسطانز الثاني أن يدفعها للمسلمين. وهكذا كان اقتناع هرقل بهذه النبوة حاسماً في اتخاذه ذلك الموقف تجاه دعوة الإسلام، لذلك عندما استجوب أبا سفيان قال له – كما ذكرنا آنفاً – فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. ذلك أن هرقل أدرك حينذاك أنه ليس في مقدوره الوقوف أمام قدر الله المكتوب وهو زوال امبراطوريته على يد أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : الهزيمة المعنوية والنفسية الكاملة التي أصابت هرقل عندما قرأ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم (نُصِرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر) (١١٩) . فقد أشارت بعض التفاصيل التي وردت في كتب الحديث الأخرى إلى الرعب والكرب الذي أصاب هرقل بسبب رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ذكرت تلك الروايات أن أبا سفيان قال في قصة خبره مع هرقل : (وحضرته يتحادر جبينه عرقاً من كرب الصحيفة التي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم) (١٢٠) . فلم يعد في مقدور هرقل سوى اتخاذ موقفه الذي اتخذه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١١٩) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج٥، ص ٣-٤.

(١٢٠) الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٥، ص ٣٠٧. وقال عنه : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

الحرب بين الروم والفرس

في ضوء سورة الروم

((الإعجاز التاريخي في سورة الروم))

إعداد

أ. د/ علي محمد عودة الغامدي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى : ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

الحرب بين الروم والفرس
في ضوء سورة الروم

(الإعجاز التاريخي في سورة الروم)

إعداد

أ.د / علي محمد عودة الغامدي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

١٤٣٦هـ / ٢٠١٥ م
الطبة الأولى

ح علي محمد عودة الغامدي ، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي ، علي محمد عودة

الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم : الإعجاز التاريخي في سورة الروم./ علي محمد عودة الغامدي . - مكة المكرمة، ١٤٣٦ هـ

٥٨ صفحة : .. سم

ردمك : ٢-٦٩٣٨-٠١- ٦٠٣-٩٧٨

١ - القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - سورة الروم - تفسير
أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٠٤٥ / ١٤٣٦

رقم الإيداع : ١٠٤٥ / ١٤٣٦
ردمك : ٣-٦٩٣٨-٠١- ٦٠٣-٩٧٨